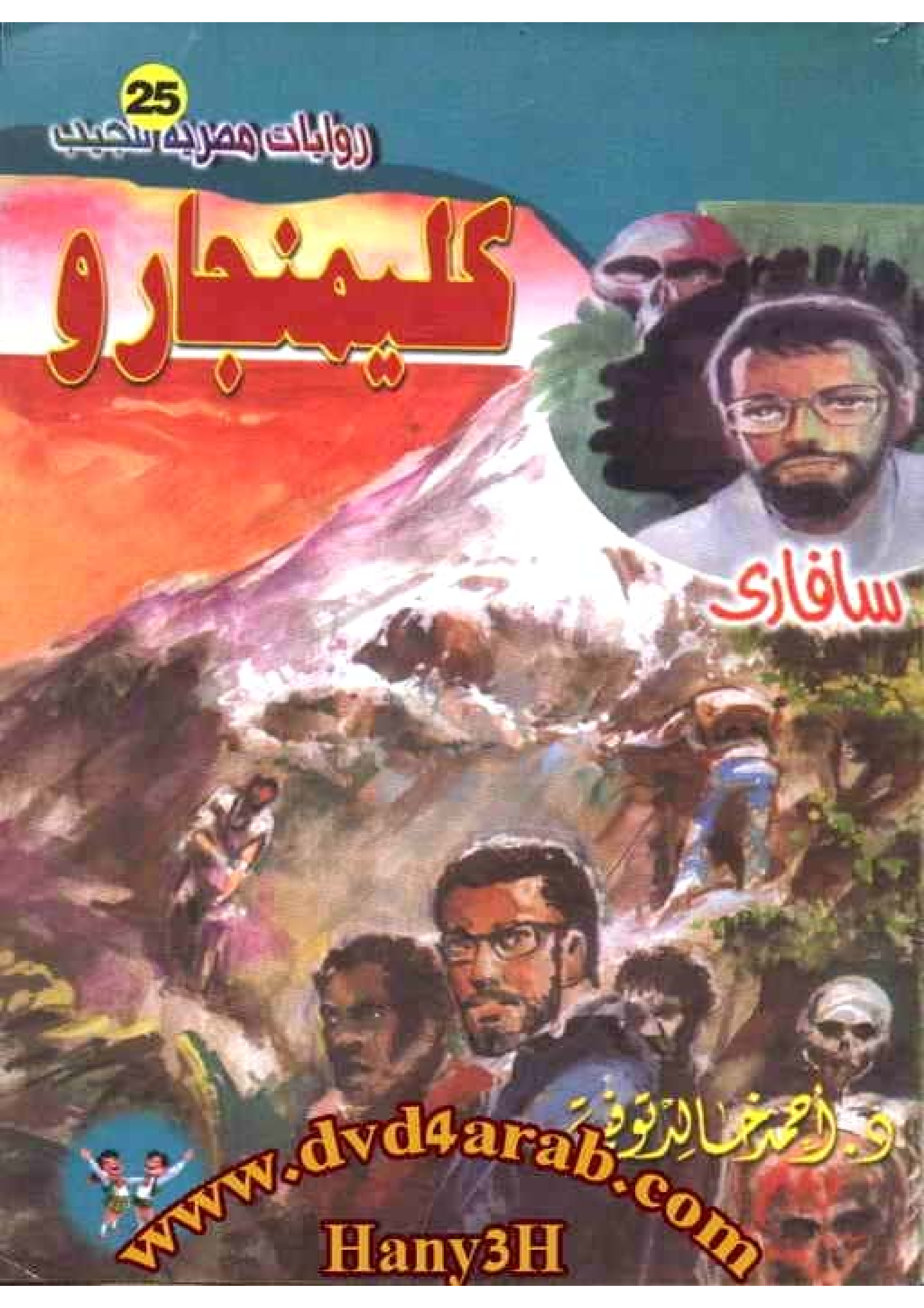

25
روايات مصرية للجيب
كليمنجارو
سافاري
د. أحمد خالد توفيق
www.dvd4arab.com
Hany3H

مقـــدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سافرية) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لاتنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات تقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لايمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون)..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

★ ★ ★

عن الحمل والفول و (زينات صدقى)
(تعرفون هذه الأمور)

تستمر الحياة ..

لكن لكل شىء فى هذه المرة مذاقًا مختلفًا .. الفكرة ذاتها باهرة لكنها مخيفة .. مخيفة ..

أومن أن فى كل ما هو جميل غريب قدرًا لا بأس به من الرهبة .. وديان القمر .. أعماق المحيط .. غابات الأمطار .. قمة (كليمنجارو) .. فكرة الأبوة ..

أنا لست صغير السن .. فيما مضى كنت أقرأ عبارة (رجل فى العقد الرابع) فى قصص (أجاثا كريستى) فأتخيل رجلاً مهيبًا يملأ الأرض والسماء ، غامضًا كالغد ، إذا فتح فاه فلكى تخرج الحكم التى تذكرها الأجيال القادمة وتستشهد بها ...

الآن أنا فى العقد الرابع .. وكما هى العادة يصعب

أن أعترف أننى كبرت وصرت خطرًا كالآخرين ..
أحتاج إلى عشرة أعوام أخرى كى أعرف هذا
الشخص الذى أراه فى مرآتى .. أحتاج إلى كثير من
الخبرات والعلم .. ما زلت طفلاً أصفق بجنون حين
يحرز لاعبو الأهلى هدفًا .. ما زلت أهوى مجلة
(ميكى) وأدبر مقالب لرفاقى .. وما زلت أنطق
بسخافات لا حصر لها ..

فى هذا الوقت بالذات أغدو أبًا !

أغدو مسئولاً عن طفل يبكى ويتلوى ويرضع
ويبلل كافولته بالفضلات .. بل وأنا مسئول عنه منذ
يخرج من الظلمات حتى أدخل أنا ذات الظلمات ..

إن الأمر يفعمنى هلعًا يا رفاق .. أحتاج إلى
سنوات كى أستوعب هذه الفكرة ..

تجربة غريبة فى أرض غريبة ...

★ ★ ★

ولم تكن (برنادت) أقل توترًا ..

طبعًا ليس من المعتاد أن تفكر المرأة فى طفل يأتى من أحشائها ، والحقيقة أن زمن الأمهات والآباء الذين يعرفون كيف يكونون كذلك قد ولى على ما يبدو .. أحيانًا يخطر لى أننا طفلان ولا يجب أن يأخذا نفسيهما على محمل الجدية ..

لكننا صمتنا .. لم نعترف قط لنفسينا بما نفكر فيه .. وإن أدركت بوضوح أنها متوترة وأنها تشرد كثيرًا ..

طبعًا كانت هناك أعراض غير مريحة .. إن الاشمئزاز من كل أنواع الطعام جعلها لا تأكل شيئًا على الإطلاق .. حين يحدث الأمر مع طبيب يحدث بعنف وقسوة .. القىء فى الصباح صار عادة محببة والدوار والصداع صارا هواية ..

على المستوى العاطفى بدا أن علاقتنا تتحسن باطراد .. أحيانًا كنا نتعامل كطفلين مذعورين لايعرفان

ما أتى بهما إلى هذا البلد . ليس لأحدنا إلا الآخر يمنحه الأمن والاهتمام ، ولو لم يكن موجودًا لجن ...

هكذا كنا نقترب .. وبدا أن ذلك الصدع الذى سببه (السايكومترى) فى حياتنا قد تلاشى تمامًا ..

طبعًا لا أحد يعرف بالأمر على الإطلاق .. وعلى الأرجح لن يعرفوا شيئًا لأننا فى الطريق إلى مصر ثم إلى (الكاميرون) .. بيتى الأول ثم بيتى الثانى ، وهكذا يمر يوم تلو الآخر وتبدو لى (كينيا) بغيضة إلى حد كبير .. يؤسفنى أن أقول هذا عن بلد لم أر فيه أخطارًا ومشاكل كالتى رأيتها فى الكاميرون .. لكن بيت أبيك هو بيت أبيك .. حتى لو كان كوخًا متهالكًا .. لا تشعر بالراحة إلا عندما تعود إليه ..

فقط يؤسفنى أن أفارق (سينوريه) العزيز ..

قال لى فى ذلك اليوم :

ـ « أعتقد أننى أحببتك حقًا يا (علاء) .. لا أدرى لماذا يداهمنى هذا الشعور المزعج بأنك خذلتنى .. »

وهو شعور مذهل بالنسبة لرجل يفوقنى سنًا، وقابل الكثيرين وعرف مئات الأشخاص والتجارب .. يصعب على الاعتقاد بأننى متميز إلى هذا الحد .. لكنه كان يملك الإجابة :

ـ « أنت تعيش بلا قناع .. لا تتكلف العلم أو الشجاعة أو النبل أو أى شىء .. يمكننى أن أرى كل خاطرة فى ذهنك على وجهك .. هذه مزية لم ألقها إلا فى رجال معدودين .. »

ثم تذكر شيئًا فأضاف باسمًا :

ـ « يخيل إلى أن جانب الطفولة فيك ما زال طاغيًا .. أنت لم تتعلم قط كيف تكبر وتصير خطرًا كالآخرين ! »

كأنه مصمم على زيادة توترى وإحساسى بالخطر !

وكنت أعرف أنه لا يتكلم بهذه الحرية مع واحد من مرءوسيه إلا لسبب واحد : أننى سأرحل قريبًا ..

ربما لا نلتقى أبدًا .. أى أننى وجه عابر قابله فى قطار ، وأنت تعرف هؤلاء الغرباء الذين تلقاهم فى القطار .. إنهم يكلمونك بصراحة وتكلمهم بصراحة عن كل شىء .. عن أدق أسرارك ..

لن أكون موجودًا بعد شهور لأتهمه برقة القلب أو أطالب بمزايا هذا التبسط ..

كانت الأيام تمضى والمربعات التى أشطبها و (برنادت) تزداد عددًا .. لا أجرؤ على عد المربعات الباقية حتى لا تزيد فجأة .. لكن الكلام عن مصر صار يحتل أغلب محادثاتنا ..

قالت لى ذات ليلة وهى تعد لى الشاى :

ـ « هل مصر بلد جميل ؟ »

فكرت قليلاً ثم قلت :

ـ « لا أدرى .. أنا لم أتساءل قط إن كانت أمى جميلة أم لا .. إنها أمى وكفى .. لنقل إن ملامحها تشعرنى بالألفة والراحة .. »

ـ « لكنك فررت منها .. أعنى مصر لا أمك طبعًا .. »

قلت باسمًا وأنا أرشف الشاى الساخن :

ـ « هناك لحظة تجدين نفسك عاجزة عن إضافة أو تغيير شىء .. كل ما تكرهين لا يتبدل ، وكل ما تحبين يتم تدميره بعناية ودقة ، عندها تشعرين بالإحباط وتتساءلين : لماذا لم يحبنى هذا البلد كما أحببته ؟ ثم تشعرين باليأس وتفرين .. ثم يمزقك الحنين فتعودين .. والأمر فى النهاية يتلخص فى أن خلاياى مصرية سواء أردت أو لم أرد .. »

وساد الصمت ..

كنت أحلم .. أحلم بصوت الشيخ (رفعت) يقرأ القرآن قبل الإفطار فى رمضان .. أحلم بطبق الفول المعدنى مع رغيفين وبصلة على عربة يد .. بالذات على عربة يد .. رائحة الطباق من مقاهى الحسين .. صوت خرفشة الثوم فى المطبخ ضمن طقوس إعداد التقلية .. رائحة التقلية ذاتها .. النيل وقت العصر ..

الشاى على الفحم والذرة فى الحقل .. (زينات صدقى) العانس الأبدية وحاجب (فريد شوقى) الأيسر .. مباراة الأهلى مع الزمالك .. مذاق الدوم فى أثناء العودة من المدرسة ..

من الغريب أن هذه الأشياء تثب إلى ذهنى تلقائيًا حين أتكلم عن مصر .. لا يثب إلى ذهنى الكرنك والنيل والهرم كما علمنى مدرس التعبير فى المدرسة ، ولكن عشرات التفاصيل الصغيرة التى لم أتخيل الحياة من دونها قط .. ولو تحدثت عن التقلية فى موضوع تعبير لنلت صفرًا .

لن تفهمى هذا أبدًا يا صغيرة .. لن تفهميه ..

ولعمرى هذه من المشاكل التى ترقد فى أعماقى طيلة الوقت .. تخرج رأسها من حين لآخر .. زوجتى من ثقافة مختلفة تمامًا ، وتكونت خلاياها من مزيج مغاير تمامًا .. فهل يستمر هذا ؟ هل تأتى اللحظة التى أشعر فيها بتمرد خلاياى ؟

إننى أعول كثيرًا علي رحلتى القادمة إلى الوطن .. لسوف تصنع هذه الزيارة الحد الأدنى من الذكريات المشتركة بيننا .. يبدو كلامى مثيرًا للسخرية ، لكننى بحاجة ماسة إلى أن تعرف زوجتى معنى (الطعمية) حين أتحدث عنها ..

حتى ذلك الحين أقر وأعترف وأنا بكامل قواى العقلية : أنا سعيد .. لماذا أنكر هذا ؟

* * *

قال (سينوريه) وهو يضع يديه فى جيبه :

ـ « لا أحد يمكنه أن يفعل هذا إلا (كومارسكى) .. هذا أسلوبه .. ولعمرى لو كان هذا الافتراض حقيقيًا فإن أسوأ كوابيسنا قد تحقق .. »

قال نائبه (جوتييه) وهو رجل راق فى العقد الثالث من عمره :

ـ « هل يعرف د. (عبد العظيم) القصة ؟ »

هز (سينوريه) رأسه فى استنكار :

ـ « بالطبع لا .. نحن لا نستقبل القادمين بغسيلنا القذر .. »

ـ « لكنه لابد أن يعرف .. »

ـ « بالطبع .. لكنى لن أحكى القصة كلها .. سأذكر

(الحقيقة ولا شىء إلا الحقيقة) .. لكنى لن أذكر (كل الحقيقة) .. »

- « هل هذا تصرف شريف ؟ »

هنا للمرة الأولى فقد (سينوريه) تماسك أعصابه وقال فى ضيق :

- « (جوتييه) ! أنت تتناسى عن عمد أننى المدير وأنت نائبى .. بعض الاحترام لن يؤذى أحدًا يا فتى .. وتتناسى العلاقة الحميمة التى تربطنى بالفتى .. ثق من أنك لن تحافظ عليه مثلى .. لكن هناك أشياء يحسن أن نجهلها كى نقوم بعملنا جيدًا .. حين تفحص مريضًا فمن الخير ألا أخبرك أنه غير قابل للشفاء .. هذا يجعلك محايدًا مخلصًا فيما تقوم به .. »

لم يرد (جوتييه) استفزاز رئيسه الجديد أكثر ، لكن المثال كان أقوى منه :

ـ « ولو كان مصابًا بالإيدز ؟ إن معرفة الأمر مسبقًا ستجعلك أكثر حذرًا .. »

ـ « (كومارسكى) ليس مصابًا بالإيدز .. »

ثم ابتلع ريقه وأردف :

ـ « هذا لو كان حيًا أصلاً .. »

★ ★ ★

استدعانى (سينوريه) إلى مكتبه فى الخامسة مساءً .. وكنت قد اعتدت أن يستدعينى فى أى وقت ، وذهب ذلك الارتباط الشرطى الذى كان يجعلنى أرتجف توجسًا فى السابعة مساءً حين كان (بارتلييه) يستدعينى .. لا أدرى لماذا كان يتذكرنى فى السابعة دومًا .. هناك أشخاص يذكروننا بأرقام ، فلابد أننى كنت أمثل له الرقم (7) ، وكان (بارتلييه) يبدو لى أقرب إلى رقم (2) لسبب ما .. بينما (شيلبى) كان يذكرنى فى استعراضيته وغروره بالرقم (5) ..

حسن .. كان (ليفى) الإسرائيلى اللعين يذكرنى بالرقم (143) ولا أدرى لماذا ..

المهم أنى دخلت السكرتارية حيث هاته الحسناوات اللاتى لا لزوم لهن .. تبادلت بعض عبارات المزاح الثقيل معهن ، ثم دخلت مكتب الرجل حيث كان يجرى اتصالاً هاتفيًا مهمًا ، وأمامه جلس (جوتييه) نائبه الفرنسى المهذب .. الواقع أن إدارة (سافارى) صارت جنة هذه الأيام .. إدارة (فرانكفونية) راقية تجمع بين الاحترام والحزم .. ومعنى هذا أن رحيلى اقترب فعلاً لأننى لا يمكن أن أعيش فى مناخ مريح كهذا ..

فلما رآنى (جوتييه) أشار لى كى أجلس وابتسم ابتسامة جانبية مجاملة .. لكننى - بينى وبينك - توجست من وجوده .. بدا لى كأنما هو هنا ليساعد المدير فى مهمة شاقة .. وما هى المهمة الشاقة ؟

طبعًا إقناعى .. إقناعى بماذا ؟ بشىء يصعب أن أقتنع به .. هكذا القصة دائمًا ..

اصبروا يا رفاق ولنصغ إلى العرض غير الشريف الذى سيقدمه لى الرجلان ..

سألنى (جوتييه) بصوت هامس :

ـ « هل استعددت للإجازة جيدًا ؟ »

ابتسمت بمعنى أن نعم ..

ـ « سوف نفتقدك كثيرًا .. »

ـ « الشعور متبادل .. »

كنت أتوجس خيفة من هذه المقدمــات ، وفى هذه اللحظـة انتهـى (سـينوريه) مـن المكالمـة فوضـع السماعة ونظر لى باسمًا ، وقال فى رقة :

ـ « هل استعددت للإجازة جيدًا ؟ »

من جديد ؟ على كل حال ابتسمت بمعنى أن نعم ..

ـ « سوف نفتقدك كثيرًا .. »

ـ « الشعور متبادل .. »

ثم صمت الرجلان بعض الوقت مما جعل شكى يقينًا .. فى النهاية قال (سينوريه) :

ـ « (علاء) .. هناك مهمة أخيرة كنت أرجو أن تقوم بها لنا .. »

ـ « أنت تعرف أننى أرحب بأية مهمة تطلبها أنت بالذات .. »

ـ « مهمة فى جبل (كليمنجارو) !! »

آه ! هذا هو بيت القصيد .. المؤامرة الدنيئة تفصح عن وجهها القبيح .. والمجرور انفتح لتتصاعد منه أخبث الروائح طرًا .. سأحتاج إلى بعض الوقت حتى أنسى هذه الخيانة ..

وقفت فى عصبية صائحًا :

ـ « أنا ؟ فى الجبل ؟ »

ـ « ليس لدينا أحد غيرك .. إننا فى مأزق ، وأنت الوحيد الذى يمكن أن نرسله لأنك ذو خبرة لا بأس

بها فى العمل الميدانى .. ثم إنك زرت الجبل من قبل .. »

ـ « كانت إحدى القرى فى السفح .. وكهف به عجوز ميتة .. لا يمكن القول إننى خبير به .. »

قال (جوتييه) بلهجة عاقلة متريثة :

ـ « لا أحد يستطيع إجبارك على شىء .. أنت طبيب ولست متسلقًا أو مستكشفًا .. يمكنك أن ترفض ولن نحقد عليك ، لكن لو سمعت القصة لكانت لك حرية القرار .. إن شيئًا من محادثتنا هذه لن يرد فى أية أوراق ، وبالتالى يمكنك أن تؤكد أنك لم تقابلنا ولم يُطلب منك شىء .. كما أننا سننكر بقوة أننا طلبنا منك أى شىء .. »

عم يتحدثان بالضبط ؟ هل قررا أن يكونا ثروة عن طريق التهريب أخيرًا ؟ طبعًا صار من المستحيل أن أرحل دون أن أعرف ما يحدث هنا .. الفضول قتل (علاء عبد العظيم) .. أو القط سابقًا ..

وأردف (جوتييه) فى شىء من الخبث هذه المرة :

ـ « لكننا سنحاول الاستفادة منك إلى أقصى حد فى الفترة الباقية لك هنا ، وعنبر (الغنغرينا) يحتاج إلى طبيب مقيم كفء مثلك .. »

إنه التهديد إذن .. إن هذا العنبر هو جحيم (دانتى) بالنسبة لأى طبيب هنا .. وهو كأس دوارة يشرب منها الجميع لأنه لابد من واحد يعنى بهؤلاء التعساء .. لو رفضت عرضهما الغامض لكان هذا العنبر مصيرى الدائم حتى يوم الرحيل .. وفى هذه المرة لن يكون بوسعى المقاومة ، لأن هذا أمر تكليف .. وعدم التنفيذ معناه الإطاحة بعنقى .. لماذا أنا بالذات يا سادة ؟ هذه طبيعة العمل يا بنى وعليك أن تنفذ ..

أطلقت زفيرًا عاليًا ثم استرخيت فى مقعدى وقلت :

ـ « أنتما تكسبان .. هل لى أن أعرف ما المطلوب منى بالضبط ؟ »

أطلق المدير تنهيدة خلاص ، ومد يده ليصب للجميع بعض القهوة فى أكواب ورقية ، ثم قال :

ـ « المهمة ليست عسيرة يا (علاء) ولا خطرة .. لكنى لا أستطيع ترك مسئولياتى والقيام بها .. ثق بى قليلاً .. لن أورطك فى شىء خطر أو قذر أو مرهق أو مريب .. »

ـ « هذا ما كنت أظنه ياسيدى حتى خمس دقائق مضت .. »

لم يرد على العبارة .. وقال بلهجة درامية :

ـ « (إرنست كومارسكى) ! »

كدت أقول له (اشمعنى) أو شيئاً من هذا القبيل ، لكن الترجمة لم تسعفنى فقلت فى دهشة :

ـ « هل مات ؟ »

ـ « كنا نحسبه كذلك !! »

* * *

- 13 -

فـى تردد وشـىء من الثقل واصـل (سـينوريه) الكلام :

- «كما خمنت .. الرجل من أصل بولنـدى .. كـان طبيبًا لدينـا هنـا منذ عشر سنوات ، وكـان المديـر إسبانيًا يدعى (رودلفو كاسونا) وهو مـن جاء قبل (ستيجوود) بـالضبط .. كنت أنـا فـى الوحدة طبعًـا وكذا د. (جوتييه) والمرحوم (ويلسلى) ، لكن أغلب طاقم الأطباء لم يكن قد جاء بعد ..

«كـان (كومارسكى) طبيـب أمـراض باطنيـة .. وكان بارعًا بحق .. إن للرجل أوراقًا علمية منشـورة فى مواضع ومواضيع عديدة تدل علـى اتساع مجـال اهتماماته ..

«لكنه - على غرار كل عبقرى - بدأ يستقل بتفكيره ، وبدأ يجرب .. يجرب من دون تصـريح ومن دون أن

يطلع أية جهة على تجاربه هذه .. كانت تجاربه ذات طابع .... لنقل إنها كانت ذات طابع غير إنسانى .. ولا تتفق مع أخلاقيات المهنة ..

« حسن .. كان من الممكن أن يستمر هذا للأبد ، ولكنى نجحت بشكل ما فى معرفة ما يقوم به ، وقمت بإطلاع المدير .. وهكذا تم إيقافه وبدء التحقيقات حول الموضوع ... »

هنا قاطعته :

ـ « أية تجارب يا سيدى ؟ »

فإن لى خبرة لا بأس بها بتلك التجارب التى لايقرها القانون .. ذلك الطبيب ـ ماذا كان اسمه ؟ ـ الذى كان يجمع أفكار المحتضرين ، وتجارب ذباب (تسى تسى) فى قرية مصرية و ... الحق أننى رأيت من هذا الكثير ..

قال (سينوريه) وهو يزن كلماته :

ـ « لا يهمك فى شىء معرفة تجاربه سنفترض أنها كانت تدور حول إعطاء عقاقير لم يتم التصريح بها من قبل إدارة الـ FAD وما إلى ذلك ..

« ما أريد قوله هو أن الدوائر دارت حول (إرنست كومارسكى) .. وبدأت التحقيقات تفصح فى كل يوم عن جديد .. إن الممرضات يتكلمن وحين يبدأن الكلام لايمكن إسكاتهن .. وهنا يجب أن أؤكد لك أن التحقيقات ظلت فى (البيت) .. ولم تتخذ قط أى طابع رسمى ..

« وفى يوم فر (كومارسكى) من الوحدة .. وانقطعت أخباره تمامًا .. لم يفر بأن يحمل ثيابه ويضع نظارة سوداء ويتجه إلى المطار .. بل فر بالمعنى الحقيقى للكلمة .. الركض فى الظلام والاختباء خلف الأشجار ، فلو أضفت إلى المشهد صوت نباح كلاب فرق المطاردة لكان فيلمًا سينمائيًا رائعًا ...

« بعد أشهر جاءنا رجال الشرطة بثيابه ممزقة غارقة فى الدماء .. لقد وجدوها عند إحدى قرى سفح

(كليمنجارو) وحولها آثار أقدام ضباع .. إن القصة واضحة تمامًا والمسكين قد دفع ثمنًا باهظًا لتجاربه، فلربما كان مصيره بيننا لا يزيد على الإيقاف أو الطرد أو السجن .. لكنه اختار الإعدام بأشنع الطرق، ولم نستطع أن نبعد عن تفكيرنا فكرة أن هذا الرجل أحمق ...

« كانت معه هنا زوجته وابنتاه .. وقد غادرت الأسرة التعسة (كينيا) عائدة إلى (بولندا) .. ولم تكن لنا حيلة فى الشعور بأننا كنا بالغى القسوة معه ربما ..

« لكن الأيام تمضى وقد نسينا جميعًا تلك القصة .. إن عشرة أعوام تحدث الكثير ..

« إلا أنه فى الفترة الأخيرة بدأنا نرى .. لنقل إننا نلاحظ علامات معينة توحى بأن الرجل حى ويمارس تجاربه من جديد .. إن بصمته على كل شىء، ورجال القبائل الذين يأتون إلينا يتحدثون عن الرجل

الأبيض الذى يعيش فى جبل (كليمنجارو) قرب قمة (كييو) .. إنهم يصفونه .. بالضبط يصفونه ..

« هذا جعلنا اليوم متأكدين من أن الرجل حى .. بعد عشر سنوات ما زال حيًا .. ويمارس تجاربه السابقة بذات الحماسة .. »

- « وكيف يعيش هناك ؟ معلوماتى هى أن تلك القمة مكسوة بالثلج .. كأننا فى القطب .. »

- « لا أعرف الإجابة عن هذا السؤال .. وهذا جزء من مهمتك .. أن تجيب عن أسئلة كهذه .. »

فرغت من كوب القهوة فألقيته فى القمامة ووضعت ساقًا على ساق ، وقد رسمت على وجهى تعبير اهتمام لا بأس به .. على حين واصل (سينوريه) الكلام :

- « مهمتك يا (علاء) لو قبلتها هى أن تصعد إلى الرجل فى الجبل .. تعرف ماذا يريد وتحاول إقناعه بالعودة .. لا نريد له أن يتورط أكثر من هذا .. »

هذا ما كنت أتوقعه والإجابة طبعًا معروفة .. إنها سؤال آخر :

ـ « ولماذا لا تكلفون الشرطة بهذا ؟ »

تبادل الرجلان النظرات ثم قال (سينوريه) :

ـ « لا نستطيع .. لا يجب أن يرد الأمر فى أوراق رسمية أو أن تذكر (سافارى) فى الموضوع .. القصة كلها ليست مشرفة ومن الخير للجميع ألا يدخل طرف ثالث سوانا .. »

ـ « هذا غريب .. »

ثم قربت وجهى من وجهه وسألته :

ـ « وماذا أقول له ؟ إن الماضى فات وعفا اللّه عما سلف ؟ أصدقاؤك فى (سافارى) يحبونك ويريدون لك الخير ؟ لابد أن الرجل بعد هذه الأعوام والتجارب لم يعد يتمتع بقواه العقلية .. من المستحيل أن يجدى معه المنطق .. أنتما تضيعان وقتكما .. »



ثم قربت وجهي من وجهه وسألته :
ـ «وماذا أقول له ؟ إن الماضي فات وعفا الله عما سلف ؟» ..

قال (سينوريه) باسمًا :

ـ « بالفعـل ستقول له هذا كلـه ... إن الرجـل لم يكن وحشًا ، وأعتقد أن ما فعله كـان رد فعل طبيعيًا لشـخص واهـن التكويـن ، لا يتحمـل المسـئولية .. شخص كهذا يمكن الكلام معه .. »

ـ « وإن فشلت ؟ أعرف أنى سأفشل لا محالة .. »

ـ « فى هذه اللحظة لن يبقى أمامى سوى الذهاب بنفسـى .. سـأجثو علـى ركبتـى متوسـلاً إن لـزم الأمر .. »

أنـا أفهم شعوره .. هو لا يريد شوشرة مـن أى نـوع خاصـة فـى بدايـة عهده كمديـر .. لقـد فـاحت روائـح كثـيرة مـن الوحـدة مؤخـرًا بـدءًا بانتحـار (ويلسلى) والمرض الأسـود الـذى حيرنـا وفسـاد (ستيجورد) .. لم تظفر وحدة (سافارى ـ 1) قط بهذه السمعة السيئة من قبل .. طبعًا الخير على قدوم الواردين أو هذا تفسيرى الوحيد للموقف ..

أضاف (ستيجوود) :

ـ « لا تنس أنك تسدى بهذا خدمة لصديق .. وأنا أعتبرك صديقًا .. »

نظرت للرجلين فى برود وتساءلت :

ـ « كم من الوقت تمنحانى كى أقرر ؟»

ـ « يجب أن يكون ردك عندى صباح غد .. »

نهضت ونظرت لهما .. ثم هززت رأسى ..

وانصرفت دون كلام ...

* * *

قالت لى (برنادت) حين عرفت بالأمر :

ـ « لا أعتقد أن المهمة شاقة إلى هذا الحد .. ربما كان عليك أن تقبل .. »

هذه زوجة رائعة إذن .. أية زوجة تحترم نفسها

لا بد أن تصرخ وتولول وتضرب صدرها بكفها قائلة شيئًا على غرار (يا ندامة !) .. لكن هذه زوجة عملية جدًا لا يرضيها إلا أن أتحمس لاكتساب هذه الخبرات الجديدة ..

قلت لها في غيظ :

ـ « المهمة تتضمن تسلق جبل (كليمنجارو) لو كنت قد لاحظت هذا .. »

قالت بنفس الطريقة البسيطة :

ـ « إنه من أسهل الجبال تسلقًا .. هو ليس (إفريست) على الإطلاق ، وكل الكتب تقول هذا .. ثق أنه لولا ظروف الحمل لتمنيت أن ألحق بك في هذه المغامرة الفريدة .. ولو كنت سمعت عنه ما يخيف لطالبتك بالبقاء معي .. »

ـ « بهذه البساطة ؟ »

نظرت في عيني بصبر وقالت :

ـ « (علاء) يا بنى .. إن العمر يمضى .. وغدًا ستقول لنفسك ليتنى تسلقت الجبل حين كان هذا بوسعى .. ليتنى غطست تحت المحيط حين كان هذا بمقدورى .. ليتنى قفزت بالمظلة من طائرة حين كان قلبى يتحمل .. ليتنى قابلت هذا الطبيب غريب الأطوار الذى يعيش وحده فى الجبل ولم نسمع عنه قط .. »

الحق أن كلامها لم يبد خاليًا من المنطق .. ثم إن روح المخاطرة بداخلى حبيسة تطالب بحقها فى الانطلاق .. فى الركض بين الحقول .. فى ملاحقة التياتل والفهود .. أى شىء سيكون أفضل من عنبر (الغنغرينا) ..

قلت لها وأنا أغمض عينى وأسترخى على الأريكة :

ـ « فلترتبى لى حقيبة الظهر .. ضعى بها كل ما يلزم .. »

ـ « وما هو الذى يلزم ؟ »

ـ « لا أدرى .. لم أتسلق جبلاً من قبل .. ليكن خيالك فى اتساع الأفق .. أريد ثيابًا ثقيلة .. ربما كذلك .. »

ابتسمت فى خبث ورسمت تعبير (التشنيكة) الشهير ، وقالت :

ـ « فتاحة خطابات ! لا يجب أن ننسى هذا ! »

نظرت لها لكنها كانت قد ابتعدت قبل أن أنفجر ..

* * *

فى الصباح نقلت موافقتى إلى (سينوريه) الذى بدا راضيًا ..

كان أول ما فعله هو أن ناولنى مظروفًا مغلقًا ، وأمرنى ألا أفتحه إلا حين أقابل (كومارسكى) فى الجبل .. يبدو أنه خطاب استرحام أو يتحدث عن (العشرة والعيش والملح) ..

ثم أضاف وهو يدون خواطر على بعض المذكرات :

ـ « سيكون معك (تـارو) .. لن تستطيع العمل دون مترجم .. »

قلت فى نوع من الاستهتار :

ـ « إن الترجمة لاتساعد على التسلق كثيرًا لو كنت تفهم ما أعنيه .. »

هتف كأنما أهين :

ـ « أدلة .. طبعًا .. هناك دليل سيكون معكما .. ربما أكثر من واحد .. »

كنت أعرف دليلاً واحدًا ليس لأنه كلى القدرة أو عبقرى ، ولكن لأننى جربته من قبل ، وأعرف بالضبط مداه وما يريده وما يخاف منه .. وأجسر على القول إننى أرتاح إليه فعلاً ..

قال لى (سينوريه) وهو يطلب رقمًا على الهاتف :

ـ « سعيد أنا بما يفوق التصور لأنك تفهمت موقفى يا (علاء) .. ستبدأ التحرك عند الظهيرة .. سيكون كل شىء معدًا .. »

اتجهت للباب ثم تذكرت شيئًا فاستدرت لأسأله :

ـ « دكتور (سينوريه) .. كيف يبدو الرجل بالضبط ؟ »

سد السماعة بكفه ونظر لى قليلاً ثم قال :

ـ « هل تصدقنى لو قلت لك إننى لا أذكر ؟ وعشر سنوات ليست بالفترة القصيرة خاصة أننى وضعته فى خانة الوفيات منذ زمن سحيق .. إنه رجل من أصل بولندى .. هذا كل شىء .. لو كان حليق الوجه فقد صار ملتحيًا أو العكس ، ولو كان نحيلاً فقد امتلأ جسده ، ولو كان بعوينات فقد تهشمت .. »

ـ « إن معلوماتك قيمة حقًا يا سيدى .. »

ـ « هالو ؟ هل (تارو) عندك ؟ إننا ...... »

كـانت المكالمـة قد بـدأت فهـززت رأســى محييًـا وغادرت المكان .. ومن هذه اللحظة يمكن القول إننى لم أعد على قوة الوحدة ..

صرت على قوة (كليمنجارو) ..

* * *



- 12 -

رفع (ماسومو) عينيه نحوى .. وقد شعر بأن الشمس احتجبت لبعض الوقت مما جَعله يفيق من غفوته .. وضيق عينيه فى غباء كأنما يتذكر من أنا ..

لم يتغير كثيرًا .. ما زال هو الفتى الذى راح يبحث معى منذ فترة قصيرة عن (لواما) أم السبعين شيطانًا .. ذات الشارب الكث والقميص المعقود على خصره لأنه لا زر له .. نفس القدمين الحافيتين اللتين تحولتا إلى حذاءين سميكين ممتازين ..

ذلك الشجاع العظيم الذى يفعل أى شىء مقابل المزيد من الشلنات ..

هذه المرة لم أكن وحدى .. بل كان (تارو) يقف جوارى ، ومن بعيد كانت طائرة الهليكوبتر التى حملتنا إلى (فوى) تقف فى ذلك الوضع المتململ المتأهب للرحيل ، ومروحتها لا تكف عن الدوران

وإثارة الأتربة .. من الغريب أنه لم يصح لدى نزولها بل أيقظه انقطاع الضوء ..

قال لى دون أن ينهض :

ـ « آه يا دكتور .. هل عادت (لواما) من جديد ؟ »

قلت باسمًا وقد سرنى أن أراه فى نفس المكان جوار كشك التحويلة ، وسط بقع المازوت ، ونفس الشكل :

ـ « لا .. المشكلة هذه المرة فى موضع أكثر ارتفاعًا .. (كيبو) ! »

صفر بشفتيه .. ثم اعتدل فى جلسته ونظر لى و (تارو) وتساءل :

ـ « هل تعرف كم تكلف رحلة كهذه ؟ »

ـ « سندفع لك ما تريد .. إن المهمة رسمية هذه المرة وليست خاصة بى .. »

هرش رأسه وعاد ينظر إلى أعلى :

ـ « (كيبو) ؟ هل أنت واثق من ذلك ؟ (كيبو) ؟ ماذا هناك بالضبط ؟ »

ـ « ثمة رجل نريده .. »

ـ « حسن .. ومتى تريد الرحيل ؟ »

ـ « الآن .. »

عاد يصفر بشفتيه .. ثم نهض وقال وهو ينفض ثيابه دون تأثير :

ـ « ليس الأمر متعلقًا بقرى السفح .. أنت تتكلم عن الجبل الأبيض .. لابد من استعدادات مسبقة .. »

ـ « هذا ما نتوقع منك أن تعاوننا فيه .. »

نظر لى .. وعاد ينظر لأعلى ثم غمغم فى ضيق :

ـ « سنحضر ما نريد من عند (شارل) .. »

ـ « لم أعرف بعد .. هل تستطيع القيام بهذه

المهمة ؟ لقد طلبت منك الشيء فنهضت ولم تقل شيئًا .. يبدو أنني لو طلبت منك الرحيل إلى المشترى لوافقت على الفور .. »

لكنه هز رأسه بمعنى أنه يعرف ما يتكلم عنه .. كان هذا خطأ فادحًا منى كما عرفت فيما بعد .. لاتستق معلوماتك عن شخص من الشخص ذاته أبدًا ، وكما قال (ماركس) قديمًا : لا تتعرف اقتصاديات بلد من تقارير البلد نفسه . ولو كانت أندية كرة القدم بهذه السذاجة لاختارونى (كابتن) الفريق القومى منذ زمن اعتمادًا على كلامى ..

لكن الفتى تقدمنا إلى داخل البلدة ولم ينس أن يبصق على الأرض ويغمغم :

ـ « (كيبو) ؟ .. »

★ ★ ★

كان كل شيء عند (شارل) الفرنسى بالفعل ..

لديه الحبال ونظارات سوداء وأوتاد ومطرقة وبعض الرزات والركاب والخوابير .. كما أنه تبرع بحقيبة ظهر عتيقة وثياب ثقيلة لـ (ماسومو) .. لم أتوقع أن الأمر بهذا التعقيد .. المفترض أن هذا الجبل سهل التسلق ..

سألته فى قلق :

ـ « هل ترى أننا نحتاج إلى أحذية تسلق ؟ »

نظر إلى أقدامنا وقال :

ـ « لا داعى .. إن الحذاء الرياضى العادى يصلح هنا .. لكن هذا .. ـ وأشار إلى قدمى (ماسومو) ـ لابد من أن يرتدى حذاء .. هل تحتاج إلى مؤن ؟ »

ـ « نعم .. الكثير من المعلبات من فضلك .. إننا نحمل بعض المؤن لكن لا بأس من الزيادة .. سنملأ زمزمياتنا قبل الرحيل .. »

من حسن الحظ أن (ماسومو) حمال كذلك .. لقد بدأت أعتقد أنه اختيار موفق ..

كان الرجل الفرنسى روتينيًا جدًا .. يلوك غليونًا وينظر لنا من فوق الإطار الأعلى لعويناته ولا يقول شيئًا مهمًا على الإطلاق .. وحانت منى التفاتة إلى المخزن .. فرأيت زوجته الإفريقية الجميلة التى هى من قبائل (الكيكويو) .. (لواما) الأخرى التى سببت لى بعض الخلط .. كانت تصف بعض الأجولة فى المخزن .. والتقت عينانا .. لا أعرف إن كانت تذكرتنى أم لا ، لكنها ابتسمت ..

فى النهاية أخرج آلة حاسبة صغيرة وراح يدون فى فاتورة ، ويحسب ما علينا دفعه .. أعنى ما على (سينوريه) تدبيره من ميزانية (سافارى) دون أن يذكر الحقيقة .. الموضوع كله مطاط ولو كنت أقل أمانة قليلاً لاتفقت مع التاجر على فاتورة فلكية .. إن المال السائب يعلم السرقة ، لكنه لن يعلمنى أنا كما تلاحظون ..

ثم قال لى (شارل) وهو ينظر إلى (تارو) و (ماسومو) :

ـ « هل هذان هما فريقك ؟ »

هززت رأسى أن نعم ، فقال بلا مبالاة :

ـ « هذا عسير .. ليس الجبل نزهة إلى هذا الحد .. كان لديك في قرى السفح محترفون كثيرون .. »

ـ « هل تعتقد حقًا أن الأمر بهذا التعقيد ؟ »

ـ « ليس مستحيلاً .. ليس هذا (إفرست) على كل حال .. لقد كان الإنجليز يتسلقون جبال الألب عام 1750 بثيابهم العادية .. ثياب الخروج والقبعة والعصا .. وربما اصطحبوا معهم نساءهم .. لهذا أطلق على رياضة تسلق الجبال اسم ألبينيزم Alpinism .. »

وعلى الرغم منى ابتسمت وقد تخيلت هؤلاء السادة البريطانيين المتأنقين يصعدون الجبال كأنهم ذاهبون إلى سباق الخيل .. والأظرف أننى تذكرت قصة اقتحام قمة (إفرست) .. كان المكتشفون مدججين بالمعدات كأنهم ذاهبون إلى كوكب (زحل) ، وكان معهم دليل من قبيلة (الشيربا) المتخصصة فى إرشاد المتسلقين .. وكلما وجد الرجال أن شيئًا ينقصهم

أرسلوا الدليل ليحضره لهم .. أى أن الدليل كان يصعد (إفرست) وينزله عشرات المرات بلا معدات تقريبًا ، ليحضر علبة تبغ أو جريدة ، وفى النهاية يقف السادة منتصرين على القمة وعلى صفحات الجرائد الأولى ، بينما لا أحد يذكر حرفًا عن الدليل .

عدت أسأل التاجر :

ـ « كانوا يتسلقون بقبعاتهم ؟ »

ـ « نعم .. لكن بعد ربطها بشريط يلتف حول قمة القبعة ثم حول العنق .. وبهذا كانوا يعتبرون أنهم اتخذوا أهم التدابير .. هل تحتاجون إلى قلنسوات صوفية ؟ »

ـ « لا .. على الأقل جلبنا هذه معنا .. »

ـ « ألتيميتر (مقياس ارتفاع) ؟ »

ـ « لا .. سنصعد حتى لا نجد ما نصعد إليه .. عندها سنهبط .. »

ـ « هذا لحسن الحظ لأنه ليس لدى واحد ! تلاحظ أننى لم أعتد أن أقابل من ينوى التسلق ، ومعظم هذه الأشياء التى عندى اشتريتها منذ زمن من بعض المتسلقين الهولنديين .. كان هذا عام 1981 ومن حينها لم يفكر أحد فى التسلق ثانية .. إن (كليمنجارو) أجمل بكثير حين تراه من موضعنا هذا .. كما أنه ليس تحديًا للرجولة يستحق أن ترد عليه .. إن التحدى الحقيقى لرجولتك هو (الهيمالايا) .. »

ثم ابتسم وأضاف :

ـ « كل من أراد تسلقه إنما أراد أن يرى قبر ذلك الفهد وسط الجليد .. إنها رواية ذلك الأمريكى .. ماذا كان اسمه ؟ أعنى الأمريكى لا الفهد طبعًا .. آه .. (هيمنجواى) .. إنها جعلت الجبل شهيرًا .. »

خرجت لأجد الرجلين يثرثران .. ومن حين لآخر ينطلق أحدهما فى قهقهة إفريقية رفيعة عالية .. من الواضح أنهما يستمتعان بوقتهما حقًا .. طبعًا هما يتكلمان السواحلية فيما بينهما ..

قال لى (ماسومو) وقد بدأ الركض فعلاً :

ـ « سأذهب لأخبر ماما (بونجوا) ! »

هل له ماما ؟ هذا خبر طيب .. لم يجدوه على غصن شجرة إذن .. صحت به قبل أن يتوارى فى الأفق :

ـ « لا تتأخر ! إن الطائرة تنتظرنا ! »

فقد كان ما قـررتـه هو أننـا لن نحتـاج إلى رحلـة قطار البضـاعة إياهـا ، مع الحاجـة إلى الوثـب منه .. ستحملنا الطائرة إلى حيث نريد فى دقائق .. أما عن الصعود لأعلى فهو للأسف شىء عسير على الطائرة بسبب الضباب المحيط بالجبل هذه الأيـام .. لابد مـن الاعتماد على جهودنا الذاتية ..

بعد قليل عـاد (ماسـومو) ركضًـا ، وعلـى الفـور فهمت سبب المشـقة التـى يعانيهـا .. إن فـى قدميـه حذاء وبالتالى يشعر بأنه وضع فى قفص .. كما أنه وضع ثيابًا أثقل .. على قدر علمى لا يوجد فى العـالم

كله دليل واحد يمكـن أن تقتنعـه بـالرحيل ويستعد لـه خلال خمس دقائق إلا هذا الفتى ..

وصل لنا لاهثًا فقلت له :

ـ « لماذا لم ترتد كل شيء ؟ لقد منحك الفرنسـى ثيابًا مناسبة .. »

ـ « ليس الآن .. ارتد ثيابك الثقيلة فقط حين تصل لمنطقة الثلوج ، وإلا لما شعرت بالدفء على الإطلاق .. »

كلامه منطقى .. دع الثياب إلى اللحظة التى تشـعر فيها بأنك تتجمد ، عندها ترتدى الثياب الثقيلة وتشعر بتحسن .. أبق ورقـة أخيرة لـم تلعبها ولاتلعب كـل أوراقك من اللحظة الأولى ...

الآن كان الغروب يقترب ، وقلت له فى توتر :

ـ « هل ترى أن ننتظر الليلة هنا ؟ »

قال وهو يحمل الحقيبة على ظهره :

ـ « لا .. إن المسـافـة التى هـى أقرب إلى المشـى

طويلة جدًا .. لو بدأنا الآن يمكننا أن نبدأ التسلق مع بزوغ الشمس .. »

من جديد ما زال هذا الفتى منطقيًا ..

وهكذا مشينا إلى طائرة الهليكوبتر التى كان قائدها قد أوقف محركاتها فأخبرته بخطتنا ..

ـ « والعودة يا دكتور ؟ »

ـ « سنعود بالقطار إلى (فوى) .. ومن هناك نتصل بـ (سافارى) طالبين قدومك .. نحن لا نعرف ماذا ينتظرنا هناك .. »

وركبنا الطائرة .. وبدأت المحركات تهدر ومن جديد شعرت بهذا الشعور الكريه .. أننى أتحدى قوانين الجاذبية وأستحق أن أعاقب بالسقوط وتهشيم عظامى كلها ..

لكن المشهد المثير حقًا كان (ماسومو) ..

لقد راح يرتجف ويرتعش ويتوتر ويتكور ويهتز ..

واتسعت عيناه حتى صارتا ككرتى البنج بونج .. ذكرنى منظره بالقط الذى تحاول أن تلقى به فى بركة ماء ..

لحسن الحظ أن الرحلة لن تكون طويلة حتى لا يصاب بسكتة قلبية ....

وتنهدت ونظرت إلى الأرض من تحتنا .. بينما الأفق يصطبغ بلون الغروب الأرجوانى المهيب .. هل هو النذير ؟

ماذا تفعلين الآن يا (برنادت) ؟ ماذا تفعل الآن يا دكتور (كومارسكى) ؟

ماذا تخبئ لنا الساعات التالية ؟

* * *

- 11 -

فى العام 1848 قدم المبشر الألمانى (يوهانس ريمان) تقريرًا عجيبًا إلى الجمعية الملكية الجغرافية .. قال فى هذا التقرير إنه كان يجول قرب خط الاستواء حين قابل جبلاً يغطيه الثلج .. كان هذا أقرب إلى هلاوس المستكشفين على غرار الناس القردة والعمالقة ذوى العين الواحدة .. الخ ..

لم يصدقه أحد .. ورفضت الجمعية بتاتًا فكرة أن يغطى الثلج جبلاً قرب خط الاستواء ..

إلا أن الجمعية اعترفت بالأمر فى عام 1861 .. إن سبب تراكم الثلوج هو ارتفاع الجبل .. وفى العام 1889 جاء الألمانى (هـ. ماير) ليتسلق الجبل ويصل لقمته .. وقد أطلق عليها اسم (قمة القيصر فلهلم) ..

تعرف الكتب الجغرافية أن جبل (كليمنجارو) هو

أعلى جبل فى إفريقيا .. وهو فى الحقيقة بركان خامد .. فوهته فوهة بركان مغطاة بقلنسوة من الثلج . ويجب أن نقول للدقة إنه يعتبر جغرافيًا فى شمال شرق (تنزانيا) لكن سفحه موجود على الحدود بين (تنزانيا) و(كينيا) .. إنها تلك النقط على الخارطة حيث يصعب رسم الحدود ، وحيث لا تلقى القبائل بالاً إلى حقيقة أنها فى (كينيا) أو (تنزانيا) .. ولأسباب كهذه نجد أن السيطرة على الحدود بين باكستان وأفغانستان أمر شبه مستحيل ..

أردت هنا أن أقول إننا فى الحقيقة إذ نتسلق الجبل تدريجيًا إنما كذلك نعبر الحدود إلى (تنزانيا) .. على بعد 320 كيلومترًا من خط الاستواء ..

* * *

كانت الطائرة الآن تحوم حول الجبل الجاثم كالكابوس فى الأفق .. وكعادة (كليمنجارو) تشعر دومًا أنه أقرب إليك من حبل الوريد ثم تدرك أنه بعيد جدًا ..

من هذا الوضع وعلى هذا الارتفاع يمكننى أن أرى أن له قمتين .. وهو ما لم أتبينه من على الأرض قط .. القمة الأعلى كانت هناك فى الغرب فى مواجهة الأفق الذى اختفت منه اللمسات الأخيرة من اللون الأرجوانى ، وصار أقرب إلى الزرقة ..

كان (ماسومو) قد هدأ بعض الشىء .. فقال فى عصبية :

ـ « هذه العالية هى قمة (كييو) .. الأخرى هى (ماونزى) .. تقول الأسطورة إن (كييو) و (ماونزى) كانا جارين سعيدين .. ذهب (ماونزى) إلى جاره وطلب نارًا فأعطاه بعضها .. انصرف وفى الطريق قرر أن يداعب جاره مداعبة ثقيلة فتخلص من النار وعاد له يشكو من أنه أضاعها .. هكذا أعطاه (كييو) المزيد من النار .. انصرف وفى الطريق قرر أن يداعب جاره مداعبة ثقيلة فتخلص من النار وعاد له يشكو من أنه أضاعها .. هكذا .. »

قلت فى نفاذ صبر وقد بلغت روحى الحلقوم :

ـ « هكذا أعطاه (كييو) المزيد من النار .... المهم .. لن تستمر هذه القصة للأبد .. »

ابتسم (ماسومو) وقال :

ـ « هذا بالضبط ما شعر به (كييو) بعد تكرار الدعابة ، فانقض على جاره ومزقه إربًا .. لهذا صار الجار (ماونزى) أى (الجريح) .. بينما تلطخ المعتدى بالدم فصار (كييو) أى (المبقع) .. لا تنس كذلك أن (الماساى) كانوا يطلقون على قمة (كييو) اسم (نجاجى نجاى) أى (بيت اللّه) .. »

ـ « أعرف .. وأعرف أن الألمان يطلقون عليها (قمة القيصر فلهلم) .. يبدو أن (كييو) هذه حيرت الناس دهرًا .. »

قصة جميلة كما ترى لكنها لا تفيد كثيرًا فى تسلق هذا الشىء المرعب الجاثم كالكابوس أو ديناصور نائم فى الأفق .. إنه نائم فلا توقظوه يا حمقى ..

وبدأت الطائرة تدور حول نفسها ببطء ثم بدأت تنحدر لأسفل .. لأسفل ..

وفى النهاية لامست الأرض ...

قال لنا الطيار :

ـ «وصلنا يا سادة .. أتمنى لكم حظًا غير عاثر ..»

وترجلنا .. وابتعدنا على أقدام من عجين ، بينما الوحش المجنح يدير مروحته ثم يرتفع فوق الرءوس ، وقد أضاء كشافاته لأن الظلام بدأ يحل .. مما ساعد فى إعطائه صورة الوحش الأسطورى .. الوحش الذى ألقى بأطفاله متخليًا عنهم ..

قال (ماسومو) وهو يشير إلى الجبل الجاثم فى الظلام :

ـ «هذا هو .. أعتقد أن بوسعنا المشى عدة ساعات أخرى ..»

* * *

كان من العسير فى هذا الظلام ، وأنا مع الرجلين أن أعرف أن (أسامبورو) سمع الصوت يتردد من جديد ...

حاول أن يتناسى الأمر .. تشاغل بالعمل ..

كان يقطع بعض سباطات الموز بسكينه الملتوية الحادة ، بينما زوجتاه تعلقان ما يقطعه على خطاطيف متدلية من سقف الكوخ ... إن الموز محصول مهم بالنسبة لقبائل (الكاشا) .. ربما هو المحصول الوحيد ..

لكن الصوت كان يتعالى ، وغدا من الصعب أن تتجاهله ..

قالت له زوجته الشابة (مونا) :

ـ « ضباع .. هذا واضح .. »

كان قد قدم لأبيها بعض المناحل وبقرة كى يظفر بها ، وبالنسبة لزوجته الأخرى لم يكن الأمر يعنى إلا خبرًا طيبًا .. هذه يد عاملة جديدة تقاسمها مشاق

الحياة الكارثية .. هنا تعتبر الغيرة نوعًا من الترف لامجال له .. أما عنصر الجاذبية الأهم فى المرأة فهو قوتها .. لابد من أن تكون بارزة عضلات الساقين والذراعين وأن تكون طويلة القامة كى تساعد زوجها .. وحقًا كانت (مونا) قوية ..

قال (أسامبورو) وهو يرفع نصل الخنجر فى الهواء :

ـ « لا .. ليست الضباع .. أنت تقولين هذا يا امرأة .. لكنك بلهاء .. »

هى كذلك كانت تعرف أن هذه ليست الضباع ..

كانت تعرف أن هذا هو الشىء الذى يتحدث عنه أهل القرية ، وقد تمنت لو أن (أسامبورو) لم يتخذ كوخه خارج القرية بسبب شجاره مع أخيه ..

كانت تعرف ما يحدث بالخارج ..

لكن (أسامبورو) فى هذه المرة كان أكثر شجاعة من ليلة أمس .. لقد حدث الشىء ذاته أمس ، وجبن

عن الخروج فقط ليجد أن خلايا النحل الموضوعة بالخارج قد تم العبث بها .. هناك خلايا مقلوبة وأخرى فارغة تمامًا .. هذه الليلة لن يتكرر الأمر ..

نسيت أن أقول لكم إن تربية النحل هى مصدر الدخل الثانى لقبائل الشاجا .. وتدمير خلية النحل بالنسبة لأسرة لا يختلف كثيرًا عن حرق دارها ..

قال وهو يتجه إلى باب الكوخ :

ـ « إنها تلك الأشياء القادمة من (كييو) .. سأعرف كيف أدبرها .. »

ـ « لا تفعل .. أرجوك لا تفعل .. »

نظر لها بغيظ واحمرت عيناه حنقًا ، وهتف :

ـ « وأنا أتساءل يا امرأة من الآمر الناهى هنا ؟ الرجل أم المرأة ؟ »

طبعًا كان الرجل لهذا صمتت ووقفت متصلبة على حين غادر هو الباب والخنجر فى يده ..

★ ★ ★

أيضًا كان من العسير فى هذا الظلام ، وأنا مع الرجلين أن أعرف أن (سينوريه) ظل جالسًا طويلاً جدًا إلى مكتبه .. كأنما لا يجد الطاقة اللازمة كى ينهض ..

فى النهاية دخل من الباب رجل أسود مغبر ، امتزج العرق على بشرته بالتراب .. إنه الطيار الذى أوصلنا إلى سفح الجبل .. كان قد عاد توًا من رحلته الليلية ..

نظر له المدير قليلاً ثم سأله :

ـ « منذ متى تركتهما ؟ »

ـ « وصلوا إلى السفح فى السابعة مساءً ياسيدى . إنهما لم يعودا اثنين .. معهما ذلك الحمال من (فوى) .. »

ـ « وهل هناك ما يريب فى المنطقة ؟ »

فكر الطيار قليلاً ثم غمغم :

ـ « أنت أمرتنى ألا ألفت نظرهما .. لكن ذلك الوهج

الأزرق كان يتصاعد من (كيبو) من حين لآخر ..
كما توقعت أنت بالضبط يا سيدى .. »

ـ « هل رأيت بعضها ؟ »

ـ « لم تتح لى الفرصة يا سيدى .. ليس فى هذا الوقت المبكر .. »

ـ « حسن .. لنأمل أن تمر الأمور على خير .. »

وأشار برأسه إشارة أنيقة إلى الطيار كى ينصرف ..

* * *

فى هذا الوقت كنا نمشى خطواتنا الأولى فى تلك المسيرة الشاقة ..

إن أمامنا سهلاً مترامياً بعده تبدأ غابات متشابكة معقدة تمتد لمساحة لا بأس بها ... بعد هذا نمر بإقليم جميل يشبه جبال الألب التى لم أرها . ثم يبدأ صخر بركانى قاتم ، بعدها ندخل منطقة الثلوج ...

ولقد مشينا مسافة لا بأس بها فى تلك المساحة المسطحة المترامية ، حتى صار الظلام حقيقة واقعة .. فلم تكن تلك من الليالى التى يميزها قمر أو سماء صافية ..

الحقيقة أننا لم نبدأ بعد .. لم نبدأ على الإطلاق لكننى أشعر بالبرد يكسو أطرافى .. أشعر به يمزق عضلاتى بخنجره الثلجى ، ويدفن النصل عميقًا فى نخاع العظام .. البرد سادى قاس ..

قال (ماسومو) :

ـ « هنا نعسكر ... إن المضى قدمًا فى الغابة فى هذا الظلام معناه الموت الأكيد .. »

* * *

- 10 -

كانت خطة (ماسومو) هى أن نقترب من الأخ (كييو) المبقع من الناحية الشرقية حيث تندر الثلوج ، والسبب هو أن تيارًا من الهواء الدافئ يغمر تلك المنطقة ..

وقد جلسنا فى العراء .. فلو كان معنا شاعر عربى قديم لقال إننا افترشنا الغبراء والتحفنا السماء .. لكن كانت معنا أغطية ، وقد بحثنا عن أخشاب جافة تصلح لإشعال النار .. ثم قداحة وسائل إشعال الموقد .. وكنت أتوق إلى بعض الشاى لهذا جلبت بعضه معنا ..

قام (ماسومو) بوضع ثلاثة أحجار عالية لتشكل الأثافى كما كان العرب يصنعون .. على أن العرب كانوا يكتفون بحجرين ويعتمدون على الجبل نفسه كحجر ثالث ، ومن ثم ولد تعبير (ثالثة الأثافى) .. أى المصيبة التى فى حجم الجبل ..

أخيرًا راح الشاى يغلى ، وكانت معى أكواب ورقية .. إن رائحة الشـاى الحميمـة الدافئـة كفيلـة وحدها بأن تجعلك تشعر بالتحسن .. أعصابك تفيق من سباتها وتورق وتتفتح كالأزهار ..

وبدأت أشعر بأننى قوى قادر .. وأننى لست أحمق إلى هذا الحـد .. تجربة جديدة مثـيرة لا خطـر منها على الأرجح ، ولسوف تختصر أيـامى الباقيـة فــى (كينيا) ، لأننى عند العودة لن يكون أمامى إلا حزم حقائبى والعودة إلى مصر .. وبالنسبة لـ (برنـادت) سـأكون ذلـك البطـل الـذى قهـر (كليمنجــارو) .. ولسوف أحكى هذه القصة عشرين مرة على المقهـى فى مصر أمام عيون رفاقى المرتابة غير المصدقة .. سيتهموننى بأننى (أنخع) حسب تعبيرهم ، ولسـوف يسرنى أنهم لا يصدقون لأنهم لا يعلمون ..

هنا توقفت عن (النخـع) لأننا سمعنا صوتًا غريبًا قادمًا من وراء الأشجار .....

* * *

نوخ .. نوخ .. نوخ !

نوخ .. نوخ .. نوخ !

نوخ .. نوخ .. نوخ !

ما هذا بالضبط ؟

دون كلام كثير مد (تارو) يده فى الحقيبة فأخرج المسدس الذى أعطونا إياه .. كان معنا مسدسان على سبيل الاحتياط ولا أنكر أنهما كانا يشعراننى ببعض الراحة ..

لكن (ماسومو) ظل فى وضعه السابق يتسلى ببعض البرتقال كعادته .. إنه لا يكف عن التهام البرتقال حتى وهو يموت .. فقط نظر للوراء وقال فى هدوء :

- «خنزير برى على الأرجح .. المنطقة تعج بها .. »

وكنت أعرف كل شىء عن هذه الخنازير البرية التى يتضح أنها ليست كذلك .. إن القصص مليئة بها ..



دون كلام كثير مد (تارو) يده فى الحقيبة فأخرج المسدس الذى أعطونا إياه ..

نوخ .. نوخ .. نوخ !

نوخ .. نوخ .. نوخ !

الصوت يقترب أكثر .. تصلبت فى جلستى .. ومددت يدى إلى (تارو) وعيناى لا تفارقان الأشجار :

ـ « ناولنى المسدس الآخر .. »

وأمسكت بالمعدن البارد الثقيل فى يدى .. كان نطاق الأشجار شبه غائب وسط الظلام إلا من ضوء لهبنا الرقراق .. سيظهر الشىء فى أية لحظة كأنه الكابوس ، مبهمًا غامضًا يصعب أن تتبينه بوضوح .. ولسوف ينقض علينا مسرعًا قبل أن نستوعب الحقيقة ..

نوخ .. نوخ .. نوخ !

نوخ .. نوخ .. نوخ !

هنا رأيت ذلك الشىء الذى يقترب حجمه من العجل الصغير ، وهو يعبر المسافة بين شجرة وأخرى بسرعة .. وسرعان ما توارى كأننا لم نره قط ..

قال (ماسومو) فى وقار دون أن يتحرك أصلاً :

- « كما قلت لكما .. هذا خنزير برى .. »

- « وهل هو خطر ؟ »

- « خطر كالجحيم فقط لو شعر بأنك أنت الخطر .. »

وعاد مستوى (الأدرينالين) ينخفض فى دمنا واسترخت عضلاتنا قليلاً .. ثم بدأ صديقاى الإفريقيان يتكلمان بلغة لا أدرى إن كانت السواحلية أم لا .. هذا يضايقنى فى الواقع ويحرك لدى مشاعر (البارانويا) .. ربما كانا يتكلمان عنى .. ليس من التهذيب أن يتهامس اثنان ويتركا الثالث .. لكن لن أضغط عليهما على كل حال .. لن أرغمهما على الكلام بالفرنسية أو الإنجليزية لأفهم بينما هما يملكان حذاءهما القديم المريح ..

الدفء .. الدفء ..

حقًا إننى أوشك على النوم .. هل من المفترض

أن ننظم ورديات حراسة ؟ فتحت فمى لأقول هذا لكنى لم أقله قط .. فقط خرج من فمى شخير طويل لأننى غبت فى عالم الأحلام ..

بالنسبة لرجل من قبائل (الشاجا) كان (أسامبورو) عملاقًا .. وكانت العضلات تتزاحم فى ذراعيه فلا تجد موضعًا لنفسها .. لكن إحدى قدميه كانت مبتورة الأصابع بسبب فأس سقط عليها منذ زمن ..

شديد المراس وهو يتقدم خارج الكوخ حاملاً خنجره ومشعلاً فى يده الأخرى .. وكان يعرف أنه لو واجه أسدًا لقهره .. إن موضوع خلايا النحل التى تلفت لا يمكن تجاهله .. ولسوف يجعل الدم يغلى فى عروقه لحظة الالتحام ..

كانت الساحة فارغة .. خلايا النحل الباقية ساكنة وفى خير حال ، ولو لم يكن قد قدم بقرته مهرًا للمرأة لاستطاع أن يتبين من حالتها العصبية وجود خطر ما ..

إنها ليلة باردة .. نجوم السماء أقل ألقًا ، وهناك سحب لا بأس بها ..

من بعيد يرى قمة (كيبو) .. وهذا يمنحه الكثير من الاطمئنان .. إن أهل قبائل (شاجا) يحبون (كيبو) ويريدون ألا يذهبوا إلى مكان لا يرونها فيه .. بل إنهم حين يموتون يحرصون على أن يدفنوا ووجههم نحوها ..

وفجأة رأى ما كان يخشى أن يراه ..

كل ما يقال حقيقى إذن ...

لا توجد أساطير تحكيها النسوة العجائز ..

إن (أسامبورو) عملاق شديد المراس ، لكنه ألقى بما فى يده .. ألقى بالخنجر والمشعل .. وصرخ .. صرخ ..

استدار ليجرى ناسيًا تفصيلاً مهمًا : إن الأرض مكسوة بالقش ، وقد سقط المشعل عليه ..

هذه تفاصيل لا يلاحظها الذين يركضون وقد أفقدهم الهلع صوابهم .. ثم إلى أين تمضى يا (أسامبورو) ؟ أنت تعرف أن كل الاتجاهات محاصرة ..

أنت تعرف أنك لن تهرب طويلاً ..

تعرف أن النساء يصرخن الآن فى الكوخ الذى أمسكت به النيران .. تعرف أن النيران ستحاصرك حالاً ..

تعرف أن هذا المصير أفضل لهن ، لأنهن لو خرجن لرأين ما تراه الآن ، وهذا ليس من مصلحة أحد ..

مشكلة من يواجهون الموت أنهم لا يدخرون قواهم ويبددونها فيما لا يفيد ، كأنهم يعرفون أنه لم تعد بهم حاجة لها بعد اليوم ..

* * *

- 9 -

إنه الصباح ..

صباح بارد بحق لكنه صباح .. وما زلنا أحياء .. وحتى حين حركت ساقى تأكدت من أن الفهود لم تقضم إصبعًا أو إصبعين ..

كان (ماسومو) قد استيقظ منذ فترة ، وجلس جوار النار يعد لنا بعض الشاى .. ثم أخرجت من حقيبتى بعض البسكويت ورحنا نلوك ونرمق الأفق ..

للمرة الأولى منذ بدأت المغامرة أرى (كييو) فى ضوء النهار .. إنه رائع الجمال بحق .. يمكن أن تتصوره لو تخيلت قمعًا مقلوبًا من الثلج ، أحطت قاعدته بثلاث حلقات .. الأولى من أسفل هى غابة كثيفة من أشجار متشابكة .. ثم يلى هذا إقليم جميل مزهر .. ثم إقليم صخرى عار من النبات تمامًا .. بعد هذا يأتى الجليد الأبيض الفاتن ....

أما أجمل منظر يمكن أن تتخيله فهو سرب من

الغزلان يمشى أمامك .. يمشى بلا وجل ولا اهتمام كأنه يعرف أنه صاحب الأرض وأنت الغريب غير الجدير بالاهتمام ..

على أنه حاد السمع حقًا .. فقد ناديت (تارو) لينهض من النوم فرأيت الغزلان تجفل على بعد ..

قال (ماسومو) وقد خمن ما يدور فى رأسى :

ـ « القرون يا دكتور .. القرون .. »

ـ « آه .. نعم .. القرون .. »

لكنى فى الواقع لم أفهم على الإطلاق ما يريد قوله ، فأردف وقد رأى حيرتى :

ـ « القرون تجسم الصوت بالنسبة لهذه الغزلان .. وبالتالى سمعها مرهف جدًا .. أضف لهذا أن لحمها كريه المذاق مما يجعلها فريسة غير محببة لدى الوحوش .. لقد ذقته مرة .. تفو ! »

وبصق بصقة كبيرة على الأرض ليبرهن لى عن إشمئزازه ثم أردف مستمتعًا بدهشتى :

- « هل تعلم أن أنثى هذا النوع من الغزلان تفقد رائحتها عند الحمل ؟ هذا يحميها فى تلك الفترة الحرجة التى لاتجيد فيها الركض السريع .. »

غمغمت فى انبهار بالعربية :

- « سبحان الله .. »

فيما بعد عرفت أن هذه المعلومة حقيقية ، وإن استبعدت ذلك فى هذا الوقت .. خيل إلى أن (ماسومو) يحكى الكثير من الخرافات ليبدو عليمًا خبيرًا ..

أو كما يقول الإنجليز (السيد - يعرف - كل - شىء Mr - Know - it - all) ..

بدأنا السير من جديد .. متجهين إلى قمة (كييو) ..

وكان علينا أن نعبر مسافة طويلة من غابات شجيرة (واتل) بزهورها الذهبية .. إنها شجرة مهمة ينزع القوم قشورها هنا ويجففونها ثم يصدرونها ، من أجل استخراج صبغة برتقالية منها .. كما أن تلك

الأخشاب كانت تستخدم وقودًا للقطارات .. الحقيقة أن هذا الشجر يستزرع فى مناطق عدة من (كينيا) لأهميته الاقتصادية ..

من بعيد ترى مراعى يحتشد فيها البقر والماعز .. وهو بقر يختلف عما نعرفه بلونه الأسود والبقع البيض على ظهره ، وذلك السنام الذى يعلو مؤخر عنقه ..

كانت مسيرة بلا أحداث ، وإن راح الإفريقيان يزجيان الوقت بأغنية مملة للغاية لكنها تضحكهما .. ويبدو أنها مليئة بالتلميحات البذيئة ..

وكما يحدث لمن يمشى مسافة طويلة ، تحرك مخزون الذكريات فى أعماقى .. ورحت أسمع وربما أكلم أمى .. أخى .. (برنادت) .. الطفل ..

انحنيت بجبهتى لألامس جبهتها ، وكنت قلقًا بحق .. نظرت فى عينيها الصافيتين الزرقاوين اللتين أغرق فيهما فى كل مرة .. وقلت لها بصوت مبحوح :

ـ « هل ستحافظين على نفسك من أجلى ؟ »

ـ « بالتأكيد .. »

ـ « لا حماقات ولا تصرفات غير مدروسة ؟ أنت مسئولة عن طفل الآن .. لا تعتقدى أنك بارعة إلى الحد الذى تحسبين .. »

ـ « أنا بارعة .. لكنى سأقبل العكس لأريحك .. »

ـ « لن تنزعى القابس وأنت حافية القدمين .. أتمنى لو كففت عن هذه العادة .. لن تقفى فوق المقعد لتصحيح وضع اللوحة .. خذى الحذر من إبر المحاقن .. لا داعى للخروج ليلاً لاستنشاق الهواء النقى .. عندما يسعل مريض الدرن فى وجهك ليس أسهل من أن تبتعدى بدلاً من التظاهر بالحنكة والشجاعة .. »

لكنى كنت أعرف أن الحمقاء عبقرية .. ستجد كارثة ما لم أفكر فيها قط .. سوف تركض دون احتراس فى الردهة لتصدم بقدمها شيئًا ما وتسقط

أرضًا .. وعندها يحدث الإجهاض وتـنزف وتمـوت .. سوف تفتح الصنبور دون احتراس ليحـرق المـاء الساخن وجهها .. سوف ....

أصارحك القول إن بعض هذه المواقف أثار غيظـى حتـى تمنيـت أن أهشـم رأسـها ، أو أقتلهـا بنفسـى وأستريح بدلاً من تركها لتموت بحماقتها .. إنهـا ليست غبية .. هى تعرف فعلاً كيف تحمى نفسها .. إنها تجيد تدبر أمرها ، لكنـى الآن وأنا علـى هـذه المسافة أشعر بأننى لن أراها ثانية ..

لم أدر أننى غرقت فى هذه الخواطر بضع سـاعات كاملة ، لكنى أفقت على صوت (ماسومو) يخبرنى أن هناك قرية ، وأنه من الخير لنا أن ندخلها .. لقد خرجنـا من حرش من الأشجار إلى فرجة واسـعة أقيمت فيها قرية ، لكن نطاق الأحراش لم ينته بعد ..

* * *

تمتاز قرى (الشاجا) كما قلت بشيئين مهمين : الموز والمناحل .. هذا هو ما تلاحظه فى كل خطوة تخطوها داخل السياج المحيط بها ..

ربما هناك ملحوظة أخرى هى أن هؤلاء القوم أقوياء البنية حقًا .. ودودون جدًا .. تراهم يتعاملون مع النحل فى خلاياه بلا أية معدات ولا شىء يغطى وجوههم أو أجسامهم العارية .. فقط من يدس يده فى الخلايا يحرص على أن يدهن جسده بالطين الذى يجف فيشكل ما يقيه من اللدغات ، ولا بأس من لفافة تبغ يقال إنها تهدئ النحل قليلاً ، فمن الواضح أن النحل الجبلى هنا على خلق ..

لقد جلسنا فى ساحة القرية بينما الأطفال يلتفون حولنا ويتصايحون .. وجاء بعض الكبار يرحبون بنا ، ويقدمون لنا الموز الممهوك بدلاً من الكاسافا لحسن الحظ .. لكنك تتساءل طيلة الوقت : كيف يمهكون الموز ؟ لا توجد طريقة ميكانيكية لهذا على ما أعتقد ..

كل شيء هنا مزيج من الموز والعسل .. خبز من الموز .. شراب من الموز والعسل .. لن أندهش لو وجدت عندهم لحمًا مخلقًا من الموز ..

وكانوا يتكلمون بلغة لم أعرفها لكن (تارو) راح يتكلم معهم بطلاقة بالسواحلية ، وراح ينقل لى ما يقولون .. ولم يقولوا إلا ما هو متوقع ..

من أنتم ؟ إلى أين أنتم ذاهبون ؟ لا تذهبوا .. المكان خطر ..

هذا شيء متوقع ومعروف .. كل أهالى القرى يقولون هذا للغرباء ، منذ توقف (هاركر) فى (بوكوفينا) بانتظار العربة التى ستحمله إلى قلعة الكونت (دراكيولا) .. لكننا متصلبو الرأس ولن نفعل ..

كان القوم يؤكدون مبدأين مهمين : أولاً الجبل خطر ونحن نبدو مجموعة من الهواة .. ثانيًا هناك تلك الأشياء التى تهبط من قمة (كيبو) .. الأشياء التى لا اسم لها ، والتى لا داعى لوصفها ..

- « إنها تقتل الناس .. »

كذا قال (تارو) لى وهو يترجم كلام امرأة عجوز تستند إلى عصا وترمقنا فى حدة ..

سألته وأنا لا أرفع عينى عن العجوز :

- « ما نوعها ؟ هل هى وحوش مثلاً ؟ فهود ؟ »

- « تقول إن أحدًا لا يعرف بالضبط .. لقد ظهرت هذا العام ، وكل (الشاجا) خائفون .. يقولون إنها أرواح الجبل تأتى من (كيبو) .. »

بدأت أفهم .. هذه هى القصة دائمًا .. والحقيقة أننى تعلمت من دراستى لحياة (بروس) و(ثيوبولد سميث) الطبيبين العظيمين أن الأهالى المحليين لا يتلفظون بالخرافات دومًا .. أحيانًا يكون هناك أساس حقيقى لما يقولون ..

ما علاقة هذا بما قاله لى (سينوريه) ؟ هل لـ(كومارسكى) دخل بهذا ؟ مصادفة غريبة بعض الشىء .. ماذا قال لى (سينوريه) بالضبط ؟ قال :

« لنقل إننا نلاحظ علامات معينة توحى بأن الرجل حى ويمارس تجاربه من جديد .. إن بصمته على كل شىء ، ورجال القبائل الذين يأتون إلينا يتحدثون عن الرجل الأبيض الذى يعيش فى جبل (كليمنجارو) قرب قمة (كيبو) .. إنهم يصفونه .. بالضبط يصفونه .. هذا جعلنا اليوم متأكدين من أن الرجل حى .. بعد عشر سنوات ما زال حيًا .. ويمارس تجاربه السابقة بذات الحماسة .. »

سألت (تارو) :

ـ « هل المرأة سمعت عن رجل أبيض عند (كيبو) ؟ »

هنا كان تصرف العجوز محيرًا .. لقد تقلص وجهها ثم ابتعدت عنا متوكئة على عصاها ، دون كلمة واحدة .. كأنما الشيطان يطاردها ..

واضح أنها سمعت عن رجل أبيض عند (كيبو) ...

★ ★ ★

قبل الغروب واصلنا التحرك .. ولا أعرف لماذا أضعنا كل هذا الوقت فى القرية ، لكننا على الأقل تزودنا ببعض المؤن .. لكننا لن نجسر على اجتياز الأحراش الكثيفة الليلة .. لابد من مخيم ..

مشينا كثيرًا جدًا حتى شعرت بإرهاق حقيقى .. والغابة المتشابكة أمامنا لا يبدو لى أننا ندنو منها ..

سألت (ماسومو) وأنا ألهث :

ـ « إننى ألهث من أجل الهواء .. لا أعتقد أننا ارتفعنا بما يكفى .. »

قال فى دهشة وهو يلهث بدوره :

ـ « لم نرتفع ؟ إننا لم نكف عن الصعود لكن المنحدر قليل الميل مما يوحى لك بأننا لا نصعد .. »

وقال (تارو) الذى كان أكثر ثقافة إلى حد ما :

ـ « هذه هى الدرجة الأولى من صعود الجبال .. حيث تشعر بأنك تمشى .. ويمكنك عدم استعمال الأيدى على الإطلاق .. بعد هذا تبدأ الدرجة الثانية حين تضطر إلى استعمال الأيدى .. »

انتابنى التوتر .. كم درجة هنالك يا ترى ؟ وما هى درجة هذا الجبل ؟

قال (تارو) :

ـ « خمس درجات .. الدرجة الخامسة لا يمكن تسلقها إلا باستعمال الركاب والرزة والحبال المتدلية .. لأن الجدار يكون رأسيًا بالكامل ! »

ـ « وكم درجة هذا الجبل وحياة والدك ؟ »

لمعت أسنانه البيضاء فى ضوء الغروب وضحك قائلاً :

ـ « خمس درجات يا دكتور ! لكن لا تقلق .. نحن نتخذ مسارًا قليل الانحدار أو هذا ما يحاول (ماسومو) عمله .. »

وأخيرًا وصلنا إلى المكان المختار للمعسكر .. بعيدًا عن الأشجار كلها لأنه لا أحد منا يحب أن يرفع رأسه لأعلى ليجد فهدًا ينظر له من فوق الشجرة ..

والحقيقة أننى صرت منهكًا بحق .. أحتاج إلى بضعة أيام من التأقلم على المرتفعات ، حين تتعلم كليتاى أن تفرزا المزيد من الكربونات .. ويتعلم طحالى كيف يضخ دمًا أكثر كثافة فى كرياته الحمراء ..

حتى ذلك الحين أريد أن أجلس وألهث وأنزع حذائى ...

كانت هذه الثامنة مساءً ..

وفى التاسعة مساءً هاجمنا أول ضبع ...



- 8 -

لو كفت الضباع عن تلك العادة السخيفة ـ عادة إطلاق الضحكات الماجنة ـ لفوجئنا بها بيننا ..

لكننا سمعنا الضحكات لحسن الحظ ، وتجمدت الدماء فى عروقنا ، وفى لحظات كان المسدسان فى يدى ويد (تارو) .. أما (ماسومو) فقد اكتفى بسكين حاد ..

وبشكل غريزى صنعنا بظهورنا دائرة حول النار حتى لا تهاجم الضباع أحدنا من ظهره ..

تبًا لها من مخلوقاتٍ كريهة ! إن الضبع العادى أكبر بكثير من الكلب .. ليس كما تتخيله فى الصور .. والحقيقة التى يعرفها العلماء أنه لا يمت للكلب بصلة ، بل هو أقرب إلى حيوان (المانجوس) ..

تراه قادمًا وقد برز السنام على ظهره فبدا متحفزًا شرسًا ، ورأسه منحدر للأمام .. واللعاب يتساقط من ركن فيه ، وعيناه جمرتا نار .. فيوشك قلبك على التوقف ..

تذكرت تجربة سابقة لي مع الضباع في كوخ تحاصره الأسود .. لكن كان معي وقتها صياد روسي يعرف ما يفعله .. يا لي من مجنون ! هل جئت إلى قلب إفريقيا لأعمل طبيبًا أم لأحارب كل وحوش البرية ؟ ما نوع هذه الحياة التي أحياها ؟

على كل حال لم يكن الضبع وحيدًا ..

هناك خمسة على الأقل توزعوا من حولنا وراحوا يبحثون عن ثغرة .. كل الضباع شرسة كالشيطان جسورة لا تقدر العواقب .. والخطأ الدائم لدى الناس أنهم يعتبرونها آكلة جيف جبانة ..

وفي نفس اللحظة تقريبًا أطلقنا أول طلقتين .. يا للدوي المرعب في هدوء الجبل ! وحين فتحت عيني كان الدخان في كل مكان لكن لا جثث ..

إنني ما زلت محتفظًا ببراعتي في التصويب .. ولو وضعت فوهة المسدس في فمي وصوبت لأخطأت الهدف .. ويبدو أن (تارو) ليس أفضل حالاً ..

(ماسومو) يلتقط أحد الأغصان المشتعلة ويلوح بها فى وجه الضباع، وهو يأتى بخطوات للأمام والخلف كأنه يلعب المبارزة .. مع ترديد: هيه! هاه! هيه!

طلقتان أخريان .. وأحد الضباع يتمرغ فى الأرض ..

هذه الضباع ليست فى حال طبيعية .. نار ورصاص ومع ذلك تصر على الهجوم ..

طلقة أخرى ..

لا جدوى .. سيفرغ الرصاص سريعًا ولن نجد وقتًا لإعادة الحشو ..

صحت فى (تارو) أن يتوقف عن الإطلاق حتى تقترب الضباع أكثر، لكنه لم يسمعنى فى حمى القتل .. ضبع ينقض على (ماسومو) ويسقطه أرضًا .. الآن فقط يمكن أن تتبين ضخامة هذا الوحش .. إنه بالضبط فى طول الرجل الساقط فوقه .. لكنه أكثر بشاعة من أسد يفعل الشىء ذاته .. ثمة شىء مقزز كريه لايوصف فى هذه الوحوش ..

وتأهبت للانطلاق ثانية ..

هنا تراجعت الضباع .. نظرت لأعلى وبدا عليها اضطراب مريب ..

ثم انطلقت تركض مبتعدة ..

وبدافع غريزى نظرت إلى اتجاه نظراتها .. كانت ترنو لقمة (كييو) .. ومن القمة كان هناك ضوء أزرق غامض ينبعث من حين لآخر .. كأنما ورشة لحام هنالك ..

ما معنى هذا ؟ ما مصدر الضوء وماذا أفزع الضباع بهذا الشكل ؟

أكذب لو قلت إننى نادم على رحيلها .. فقد كان واضحًا أن جيشنا الصغير مهلهل وموشك على التبعثر .. ولكن ما سر ما حدث ؟

إما أن لنا حارسًا خفيًا ، وإما أن ما يوجد فى القمة مخيف .. مخيف إلى حد أن الضباع ذاتها تتوجس منه ..

* * *

لم أعرف أنه فى ذلك الوقت فى (سافارى) شعرت (برنادت) بذلك التوجس الشديد ..

كانت لا تثق كثيرًا بقدراتها الخارقة للحواس .. خاصة بعد المقلب الذى شربته مع (السايكومترى)، لكن الأمر الآن كان أقرب إلى اليقين .. (علاء) فى خطر داهم ..

نهضت وراحت تجوب غرفتنا جيئة وذهابًا، وهى تشعر بأنها تختنق ..

ثم إنها ارتدت ثيابها، واتجهت إلى مكتب المدير ..

لم تجده هناك لأنه كان يتفقد عنابر الحميات كعادته فى المساء .. إن كونه مديرًا لم يمنعه من ممارسة الطب السريرى الذى يحبه ..

دخلت عليه العنبر حيث كان واقفًا مع أحد أطباء القسم .. فما إن رأته حتى أدركت أنه متوتر بشكل ما .. كان شاحب الوجه يتظاهر بالإصغاء لكنه حائر فى مكان وزمان آخرين ..

قالت له فى لهفة :

ـ « سيدى .. هل من أخبـ .... »

نظر لها وقاطعها فى لهفة :

ـ « (علاء) .. هه ؟ أنت تشعرين بالشىء ذاتـه .. أليس كذلك ؟ »

شحب وجهها :

ـ « بلى سيدى .. ولكن .. »

أمسك بذراعها ليقودها معه خارج العنبر ، وعلى الباب وقف ونزع المسماع من حول عنقه ووضعه فى جيبه ، وقال لها همسًا وهو يعبر بكفه كعادة الفرنسيين :

ـ « نعم .. معك يغدو الأمر مفهومًا لأن صلة روحية ما تجمعكما .. لكن كيف أشعر أنا بهذا الشىء ؟ إنه صديقى لكننا لم نقض معًا ساعات تكفى لوجود اتصال روحى بيننا .. »

ـ « والعمل ؟ »

هز كتفيه فى قنوط :

ـ « لا عمل سوى أن نتركه يتصرف .. وأنا أعرف أنه سيجيد التصرف .. لا أعرف أين هو ولا ماذا يفعل الآن .. وحتى لو كان يحمل هاتفًا خلويًا فلا أخال الاتصالات تبلغه فى الجبل .. فقط لنأمل أن هناك سحابة كهربية ما هى التى جعلتنا نشعر بهذا الشعور .. هناك ليال تسبب الانقباض وهذه الليلة إحداها .. »

قالت وهى ترتجف توترًا :

ـ « لو حدث له شىء .. لن أنسى أننى من أصر على ذهابه .. »

ـ « وأنا .. أنا أقاسمك المسئولية أو أتحمل أكثرها .. فقط لنعد يا صغيرتى إلى أعمالنا ، ولندع اللّه أن يحسن الفتى التصرف كما قلت لك .. »

نظرت له طويلاً .. الحقيقة أن شعوره هو الآخر بـ (شىء ما) قد ملأها رعبًا .. مستحيل أن تكون هذه مصادفة ..

* * *

فى الصباح واصلنا المسير ..

لقد اجتزنا بنجاح منطقة الغابات .. صحيح أن البرد يزداد بشكل ملحوظ ، لكن أمامنا أجمل منظر يمكن للعين أن تراه فى إفريقيا .. أشجار جميلة وزهور فى كل صوب .. وطائر جميل أخبرنى (ماسومو) أنه (الطهيوج) .. وعول تركض من بعيد .. أرانب برية ..

هذا هو النطاق الذى يشبه غابات الألب فى أوروبا ..

الآن يجب أن أعترف أننا نصعد فعلاً .. لم نعد نمشى كما كنا ، لكننا نرتقى لأعلى وإن ظل الأمر سهلاً لا يحتاج إلى مجهود تقريبًا .

لقد عبرنا الحدود منذ زمن بين (كينيا) و(تنزانيا) .. فى موضع ما من غابة الأشجار الكثيفة التى اجتزناها أمس ... نحن الآن متسللون إلى (تنزانيا) لو كان هناك أحد يهتم بهذه الأشياء ..

سألت (ماسومو) وأنا ألهث :

ـ «ما كان سر فرار هذه الضباع أمس ؟؟»

ـ «وهل تلومها على ذلك يا دكتور ؟»

ـ «لا ألومها .. لكنى أحاول أن أفهمها ..»

كان منهمكًا فى تقشير برتقالة بأسنانه .. فبصق القشرة وقال :

ـ «تفوه ! إن لهذه الوحوش غرائز غريبة .. أنا لم أكن ضبعًا قط لهذا لا يمكننى فهم طريقة تفكيره ..»

ـ «وما سر الضوء الأزرق من قمة (كييو) ؟»

ـ «لم أر ضوءًا أزرق ..»

وواصل المسير مبتعدًا عنى .. أما أنا فقلت لنفسى إن الأمر لا يزيد على ظاهرة كهربية إستاتيكية ما .. كما تضىء أنوف الناس وأطراف الغلايين بضوء أزرق غامض فى القطب الشمالى .. يسمونه ضوء

(سانت ألمو) ويفسرونه تفسيرًا كهربيًا لكنه غير مرض تمامًا ..

قمة مكسوة بالثلج قرب خط الاستواء ! لابد أن دستة من الظواهر الفيزيائية العجيبة تتم هناك ..

ولكن ..

يا دكتور (كومارسكى) .. أى نوع من الرجال أنت ؟ كيف تعيش فى بيئة معادية غريبة كهذه ؟ ترى ماذا تفعله الآن إذا كنت حيًا أصلاً ؟

* * *



- 7 -

كان الشىء معلقًا فوق العمود الخشبى الطويل ، وكانت سحابة من الذباب تحيط به ...

من اللحظة الأولى شعرت بأننى لن أحب ما سأراه لو اقتربنا أكثر ، لكننا اقتربنا أكثر ونحن نرتجف .. والرؤية تتضح أكثر .. بالفعل لم يكن أجمل منظر يمكن للعين أن تراه ..

كان طنين الذباب عاليًا بالإضافة إلى الرائحة .. ويبدو أن من نفذ العملية كان بارعًا لأن الوتد خرج من الفم بدقة شديدة .. ومن الواضح أن هذا المشهد الفظيع تم منذ شهر على الأقل .. إن برودة الجو تسمح ببقاء الأنسجة فترة لا بأس بها ..

تذكرت نفس الصورة فى فيلم قديم اسمه (محرقة أكلة لحوم البشر) .. فيلم شنيع من أفلام (الجياللو) الإيطالية التى كانت حيازتها تعتبر جريمة فى أكثر أوروبا ، وبالطبع لم أر الفيلم لكننى رأيت لقطات منه .. كأن من نفذ هذا المشهد كان يحاول محاكاة الفيلم ..



كان الشيء معلقًا فوق العمود الخشبي الطويل ، وكانت سحابة من الذباب تحيط به ..

غطيت أنفى بمنديلى وقلت لـ (ماسومو) :

ـ « هل هناك أكلة لحم بشر هنا ؟ »

كان يرتجف كورقة وقد أوشكت عيناه على مغادرة المحجرين .. قال لى :

ـ « لا .. البتة .. ليس هنا إلا قبائل (الشاجا) وكلهم مسالمون .. »

ـ « ومن الكافر الذى يفعل شيئًا كهذا ؟ »

اهتز أكثر وهمس :

ـ « الأرواح ! »

كنت أغطى فمى بالمنديل ، لأننى كنت أشعر بأنى لو لم أغطه لتسرب الموت إلى داخله .. هذه الرائحة هى رائحة الموت .. تخرج من عباءته السوداء ومن أنفاسه ..

ونظرت إلى أعلى .. من الواضح أن هذا رجل .. قوى البنية برغم كل ما انتزع من هيكله من عضلات ..

أما الأخطر فهو تلك الطيور التى تحوم فى الجو .. عقبان أو نسور لا أدرى بالضبط لكن مهمتها محددة جدًا ..

قال (ماسومو) وهو يتراجع للوراء :

ـ « لاحظ أن وجهه يتجه نحو القمة .. نحو (كيبو) .. »

ـ « وما معنى هذا ؟ »

ـ « لا أدرى .. لكنه يلفت النظر .. »

ألقيت بما أحمله على الأرض ، وقلت وأنا أكمم أنفى بالمنديل :

ـ « على كل حال هناك شىء واحد ينبغى عمله .. يجب أن ندفن هذا البائس ... لن يبقى هنا .. »

وفى تردد ألقى الرجلان بما يحملان ، وشرعنا نحرر هذا البائس من الوتد الذى اخترق أحشاءه جميعًا .. وحفرنا حفرة تتسع له .. استغرق الأمر

نصف ساعة من العرق والغبار لكن فى النهاية كان كل شىء قد انتهى ، وحرمت النسور أو العقبان من وجبتها ..

وشرعنا نغادر الرقعة الكريهة وقد تقلصت أحشاؤنا ..

لقد هزنا المنظر من الأعماق . لكن ـ بالإضافة إلى بشاعته ـ بدا لى كأنما هو النذير ..

هذا حارس بوابة الجحيم الذى نمشى إليه بحماسة ..

* * *

ونواصل مسيرتنا عبر أجمل غابات رأيتها فى حياتى ..

صحيح أن الهواء يغدو شحيحًا باستمرار ، حتى تشعر بأنك فى السبعين من عمرك .. لكن منظر كل هذه الأزهار وقطعان الوعول من بعيد لابد أن يفتنك .. يغسل المشهد الشنيع من ذهنك ..

وكنت أنظر فى رعب إلى رفيقى .. متى يقرران التراجع ؟ متى يقرران أن الأمر خطر ؟ عندها سيكون من الضرورى أن ألغى رحلتى وأعود لأننى لا أعرف شيئًا عن هذا الجبل ..

كانت الشمس تنحدر نحو الأفق الغربى حين توقف (ماسومو) وأشار أمامنا ..

الآن بدأ الأمر يتخذ صبغة حقيقية ...

للمرة الأولى أدرك يقينًا أننا نرقى جبلاً ..

لقد انتهى المزاح، وبدأ الجزء الخطير بحق من رحلتنا .. الصخور البركانية .. منطقة السراخس والطحالب التى ستنتهى وتبدأ المنطقة الجرداء الصاعدة ..

سألت (تارو) مترجمنا الهمام :

ـ « إلى أية درجة ينتمى الجزء القادم ؟ »

ـ « ثانية وثالثة .. لن يكون الأمر سهلاً لكنه ليس مستحيلاً .. »

وقال (ماسومو) وهو يتثاءب :

- « أعتقد أن علينا أن نمضـى الليل هنـا .. لاحظ أن هناك رمالاً متحركة فى المرحلة التالية .. »

صعد الحمض من معدتى حين سمعت الكلمة :

- « رمال متحركة ؟ على جبل ؟ »

- « يبدو الأمر كذا .. »

وفى تلك الليلة أخرج كل منا (بول أوفر) إضافيًا من حقيبته .. وانتحيت أنـا جانبًا وارتديت سروالاً صوفيًا داخليًا - ذلك الذى اشتريته من (إمبابة) فى آخر مرة عدت فيها لمصر - تحت بنطالى .. اكتفيت بهذا فلا يجب أن أحرق كل أوراقى .. لابد من شىء أتذكر فى ذروة البرد أننى لم ألبسه بعد ..

جلسنا بعض الوقت صامتين ، ثم غرق الرجلان فى حديث لم أفهم منه حرفًا بالطبع ..

- « (تارو) .. »

لكنه كان منهمكًا مع صاحبه يثرثران ..

ـ « (تارو) .. »

بصوت أعلى قليلاً ..

هنا التفت لى فلم أقل شيئًا .. فقط أشرت إلى الرجل القادم من بين الأشجار نحونا ..

* * *

حين اقترب (صمويل جولدسميث) منا أكثر ، أدركنا على الفور جنسيته الأوروبية .. فيما عدا هذا لم يكن من شىء يدل على أنه كائن بشرى أصلاً ...

كانت له لحية شقراء تتدلى على صدره ، وقد ارتدى معطفًا ثقيلاً من مخلفات الحرب امتلأ بالبقع .. وعلى رأسه قلنسوة صوفية ملوثة بالشحوم .. وتتدلى على صدره قلادة من قلائد الوطنيين هنا .. لابد أنها جمجمة أو قناع إفريقى أو شىء من هذا القبيل .. قدرت أنه فى الأربعين من عمره وإن كان يبدو أكبر سنًا بكثير .. وكان يحمل فى يده عصا خشبية ...

الخلاصة أنه لولا شعره الأشقر وعيناه الزرقاوان لحسبته من مجاذيب الموالد عندنا ..

دنا منا وقال بصوت ملهوف :

- « هل يتحدث أحدكم الإنجليزية ؟ »

لقد بدأت لغتى الإنجليزية تترهل بسبب استعمالى الفرنسية طيلة الوقت ، لكنى ما زلت قادرًا على استخدامها ... أشرت له أن يجلس وأنا أتساءل من هذا الرجل ومن أين جاء .. غير أننى أدركت حقيقة واحدة : لا خطر منه على الإطلاق ..

جلس قرب النار وراح يرتجف ثم سألنى السؤال التقليدى لمجذوب :

- « هل لديكم طعام ؟ »

دون كلمة فهم (ماسومو) المراد فقرب من الرجل علبة طعام محفوظ كان قد فتحها .. فمد الرجل مخالبه داخلها وراح يلتهم ما بها التهامًا ..

ـ « أنا (صمويل جولدسميث) .. أمريكى .. هل أنت عربى أيها الشاب ؟ »

هززت رأسى أن نعم .. فالملامح العربية يعرفها أى كان مغمض العينين ...

ـ « ذاهبون إلى (كيبو) ؟ غريب .. هذا غير معتاد .. لا أحد يذهب إلى (كيبو) .. »

ـ « لماذا لا يذهب أحد إلى (كيبو) ؟ »

ـ « لأنه هناك .. »

وواصل الأكل كالمحرومين كأنه أجاب على أسئلتنا كلها ..

عدت أسأله بإلحاح :

ـ « من هو الرجل ؟ »

نظر إلى قمة (كيبو) وغمغم فى رهبة :

ـ « إنه فيلسوف .. لكنه لا يعبر عن فلسفته بالكلمات ولكن بالأفعال .. وبعض أفعاله قاسية والحق

يقال .. لكنك تفهم .. أحيانًا تبدو ضربات فرشاة (جوجان) أو نغمات (فاجنر) قاسية على أبصارنا ومسامعنا .. لكنك تمضى بعض الوقت فتدرك أن هذا سر روعتها .. هل رأيت ضربات (جوجان) بفرشاة ؟ كم هى متوحشة ! إنه يضع اللون الأحمر من الأنبوب مباشرة ولا يخففه على الإطلاق .. هكذا الرجل .. »

ثم ابتلع ما بفمه وهتف بحماسة :

ـ « هل هى صدفة أن أختار قمة (كيبو) بالذات ؟ هذا ليؤكد تفرده .. ودعنى أخبرك بسر .. هذا الرجل لن يترك القمة أبدًا .. لقد صار وهى شيئًا واحدًا حتى أنى لا أعرف من منهما وجد أولاً .. إن أساليبه عنيفة .. أحيانًا تجدها قاسية .. لكن لو ابتعدت عنها وفكرت بحياد لوجدت أنها ضرورية .. »

عدت أكرر سؤالى نافد الصبر :

ـ « من هو الرجل ؟ »

قال بنفس الذهول :

- « وما جدوى الأسماء ؟ إنها تلك الحيلة التى ينتحلها أمثالى وأمثالك ممن لا طعم لهم ولا مذاق .. فقط كى يتظاهروا بأن لهم أهمية ما .. أما هو فلايحتاج إلى اسم .. يكفى أن تطلق عليه اسم (الرجل) .. وصدقنى أن القبائل هنا تفهم ما أقول أكثر منك .. »

ثم راح يضرب الأرض بقبضته فى حماسة :

- « الرجل رائع .. دعنى أؤكد لك هذا .. إنه رائع .. كأن حكمة كل الفلاسفة قد قطرت وزرعت فيه .. »

- « هل تتحدث عن الدكتور (إرنست كومارسكى) ؟ »

صاح فى غضب والطعام يخرج من فيه :

- « قلت لك إن الأسماء لا تهم . »

نظرت إلى الرجلين اللذين لم يفهما أغلب المحادثة لأنها بالإنجليزية .. واضح أن هذا الـ (جولد سميث) لن يقدم أية معلومات .. إنه مجذوب فعلاً أو (صريع القمر) كما يقول الألمان ..

ـ « هنـــاك رجـل معلـق على خـــازوق فـى هذا المنخفض .. لقد تم سلخه حيًا .. هل تعرف شيئًا عن هذا الموضوع ؟ »

صاح فى انبهار :

ـ « نعم .. نعم .. أحيانًا يحرقهـم أحياء وأحيانًا يربطهم لتلتهمهم الضبــاع .. قلـت لـك إن أســاليبه عنيفة لكنها مثمـرة .. إن الرجل رائـع .. أقولهـا لـك بأمانة .. »

ـ « حسـن .. هو رائـــع .. لكن مـا الثمـــرة التـى تحققها أساليبه ؟ »

ـ « الحقيقـة ! إنه يقترب ! ربما وصل ! قـالوا إنك لا تستطيع صنع الحلوى من دون نــار . ولا تستطيع صنع العجة من دون تكسير البيض .. ولا ..... »

ـ « نعـم .. لا يمكنـك عمـل كذا مـن دون كـذا .. اختصر .. »

ـ « المهم أنى أعتبر نفسى خادمه الأمين . ومهمـا أرادنى أن أبتعد فلن أفعل .. »

- « هل تزوره أحيانًا ؟ »

- « بالطبع لا .. لقد أمرنى بأن أغرب عن وجهه .. لكنى كالكلب الوفى لا أبتعد مهما أمرنى صاحبى بذلك .. »

على الرغم منى تذكرت تعبير (مزجر الكلب) الذى كان (بسام) التونسى يصف به جلستى فى غرفة المدير فى (سافارى) القديمة .. الكلب لا يجرؤ على الاقتراب .. لكنه كذلك لا يريد الابتعاد .. وقد فشلت تمامًا فى إقناعه أنى أعتبرها إهانة ..

ترى ماذا تفعل الآن يا (بسام) أيها العزيز ؟

كان الليل قد أعلن سلطانه النهائى والتام .. لهذا قلت للرجل فى قنوط :

- « هل تقضى الليل معنا هنا ؟ »

نهض ولوح بالعصا وصاح :

- « لا .. لا من فضلك .. إننى أجوب الجبل كالذئاب .. كان جسدى جائعًا وشبع .. الآن حان الوقت كى يشبع وجدانى .. »

وابتعد بخطى سريعة ليغيب وسط الأشجار ..

هذا المجذوب مفيد لو قبل البقاء معنا .. إنه ـ فيما يبدو ـ يقضى حياته صاعدًا إلى (كييو) ونازلاً منها .. لابد أنه يعرف الجبل مثل ظهر يده بدليل بقائه حيًا ..

وسألنى (ماسومو) بعدما ابتعد الرجل :

ـ «عم كان يكلمك هذا الأوروبى ؟»

قلت وأنا انظر إلى الظلام :

ـ «كان يحكى لى عن عبقرية رسام يدعى (جوجان) ..»

★ ★ ★

- 6 -

كم يبلغ ارتفاعنا الآن ؟

ليتنى اشتريت جهاز (الألتومتر) الذى عرضه على الفرنسى فى المتجر .. لو لم يكن هذا الجهاز موجودًا فإنهم يقومون بغلى جهاز (الترمومتر) .. وتذكرت فى سخرية تجربة (مارك توين) الكاتب الأمريكى الساخر حين قرر أن يغلى البارومتر كى يعرف ارتفاعه ، وكانت النتيجة أن كل أفراد الرحلة أحبوا حساء البارومتر لأن له مذاقًا حريفًا محببًا .. وراحوا يطالبون بالمزيد منه ..

الفكرة هنا - من غلى الترمومتر - أن درجة غليان الماء تنخفض بمقدار ثلاث درجات مئوية كلما ارتفعنا عن سطح البحر كيلومترًا واحدًا .. وملاحظة درجة غليان الماء تعطيك فكرة عن الارتفاع ..

على كل حال لقد انتهينا من منطقة الأشجار والزهور ودخلنا المنطقة الوعرة ، ومعنى هذا أن

ارتفاعنا أربعة كيلومترات فوق سطح البحر .. عرفت هذا فيما بعد حين قرأت جغرافية الجبل بالتفصيل ..

والملاحظ هنا أننا بلغنا هذه النقطة بشكل أسرع فى المرة السابقة حين كنا نبحث عن (لواما) فى قرى السفح .. لكن السبب هو أننا لم نكن نبغى (كيبو) وقتها .. أما الآن فإن (ماسومو) يدور بنا دورة طويلة نوعًا لكنها تجعلنا نصل إلى (كيبو) من جهة الشرق قليلة الثلوج ..

نحن الآن نعبر منطقة وعرة بالفعل تحتاج إلى استعمال اليدين من حين لآخر .. طبعًا من حين لآخر كان (ماسومو) يتوقف ويأمرنا بأن ندور حول بقعة ما، لأن عينه الحساسة كانت تميز بقاع الرمال المتحركة ..

فيما بعد تعلمنا أن نقذف الأحجار أمامنا فى أثناء المشى .. ونستردها حين نصل إليها لنعيد قذفها، فإذا غاب الحجر غائصًا فى الأرض عرفنا ما ينتظرنا ..

بدأت أتعب وبدأت أتعثر ..

ليس الأمر لعبة أطفال بالتأكيد ...

★ ★ ★

وكان (ماسومو) هو أول من رأى المرأة العجوز عند الغروب ..

كانت قادمة من بعيد .. منحنية كأى عجوز .. ترتجف كأى عجوز .. لكنها - وهو ما أثار قلقى - لا تبدو فى مشكلة بالنسبة لهذه الصخور الوعرة .. إنها تمشى كأنما هى على أرض منبسطة ..

زنجية هى .. تلبس ثيابًا عجيبة مزركشة .. شعرها المجعد الأشيب ينتثر على جانبى رأسها كأنما هى مجذوب آخر ، وقد تغطى صدرها وذراعاها بالحلى إلى درجة ملفتة للنظر ..

كان الثلج يكسو وجهها ويتكوم على كتفيها ، وهو ما بدا لى غريبًا لأننا لم نصل لنطاق الثلج بعد .. ثم بدأت أفهم حين رأيت ساقها التى انثنت فى وضع مستحيل تشريحيًا من تحتها وهى تمشى ..

صاح (ماسومو) بالسواحلية ثم قام بالترجمة إلى الفرنسية :

- « ليتنى لم أولد ! إنها (لواما) ! »

(لواما) أم السبعين شيطانًا ؟ هنا ؟ لكنها ماتت يا بنى .. صارت جثة متجمدة وفحصناها بأنفسنا ..

لكننى كنت أعرف أنها هى .. هى ذات المرأة التى وجدناها فى ذلك الكهف ..

المرأة التى قالوا إنها الرعب الذى يتوارى فى الظلال ، وعواء الذئاب فى الأحراش ليلاً ، والنذير الذى يتوارى فى كل ركن ويحتشد مع الغيوم المنذرة بدنو العاصفة ، وهى فى كل مكان لكن لا مكان لها ..

هذه المرأة كانت مخيفة بما يكفى فى حياتها فكيف بعدما ماتت ؟

وهنا راحت تضحك ..

تضحك ضحكة شيطانية عجوزًا من التى تضحكها الهياكل العظمية فى أفلام الرعب . إنها تعرف أنها تبدو كساحرة شريرة وهى مصممة على أن تكون كذلك ..

صحت فى (ـسومو) كى يهدأ :

ـ « كف عن السخف ! المرأة ماتت .. نحن نعرف هذا .. إن ما نراه الآن هلوسة بسبب نقص الأكسجين .. »

وهو منطق لا بأس به .. ما زال العلماء يؤكدون أن نقص الأكسجين هو سبب كل رجال الجليد الذين شوهدوا فوق قمم الهيمالايا ..

ـ « ليتني لم أولد ! إنها (لواما) ! »

وراح يلطم خديه كالنساء ويتواثب فوق الصخور ..

نظرت للوراء فوجدت أن المرأة مصرة على القدوم لي .. والحقيقة أنك يجب أن تعذرني .. كان منظرها مفزعًا بحق ، لهذا توارى منطقي العلمي على الفور ورحت أثب بين الصخور محاذرًا أن أنظر للوراء .. محاذرًا أن أقع في منطقة رمال متحركة .. محاذرًا أن أتعثر ..

وأخيرًا وجدت الصخرة التي خلفها توارى (ماسومو) و(تارو) ..

لم أتكلم .. فقط أخرجت المسدس وصوبته تأهبًا لما سيحدث ..

تبًا للإشعاع السايكوفيزيائي ! لو كنت (عنترة بن

شداد) ورأيت رجلين مذعورين لملأ الخوف قلبك حتى قبل أن تفهم سبب خوفهما ..

في اللحظة التالية أطل وجه المرأة من وراء الصخرة .. وقد بدا أبشع مما رأيته من بعيد .. وانفتح فمها الذى خلا إلا من أنياب معدودة جعلتها أقرب إلى الذئاب ، وصاحت :

- « ستموتون !! أيها المدنسون ! لن تبلغوا (كيبو) أبدًا ... هى هى هى ! »

وعادت تردد تلك الضحكة الشنيعة .. الحقيقة أن المرأة كانت تؤدى دور الشبح كما ينبغى أن يكون بلا خطأ واحد .. وفى اللحظة التالية توارت ..

أخرجت رأسى من وراء الصخرة .. ماذا تتوقع ؟ طبعًا لم أجدها ..

- « هلاوس ! قلت لكما إن هذه هلاوس .. إن أمخاخنا تفتقر الآن إلى الأكسجين والجلوكوز .. لهذا نرى ما يراه الثملون ونسمع ما يسمعون ونمشى كما يمشون .. »

قال (ماسومو) فى رهبة :

ـ « بدا لى المشهد حقيقيًا .. »

وراح يرتجف ويردد ما لابد أنه تعلمه من أمه لطرد (الداوا) ..

ثم سأل (تارو) إن كان رآها فقال هذا :

ـ « لا .. أنت لم تفسح لى مجالاً .. »

قلت لنفسى إنه لو كانت هذه هلوسة أو كان هذا شبحًا فلسوف يحدث الشىء ذاته .. سوف تختفى المرأة .. أى أنه من المستحيل إثبات ما رأيناه ..

كان لون الغروب الرهيب يغمر المكان الآن ، وبدا لى أنه من العسير أن نعسكر هنا .. على الأقل من أجل الرجلين اللذين طار صوابهما ، لذا اقترحت أن نواصل الزحف ساعتين أخريين ..

وللمرة الأولى اعتبرنى (ماسومو) قائدًا له ..

* * *

هذه المرة تناوبنا السهر ..

كان كل شيء معاديًا لنا ، حتى شعرنا بأن الجبل ذاته يتآمر ضدنا كى ينهار فى أية لحظة ويبتلعنا ..

وفى الثالثة صباحًا أيقظنى (تارو) .. وأشار إلى قمة الجبل المغطاة بالثلوج ..

من حين لآخر كان ضوء أزرق غامض - كما وصفته لك - ينبعث من القمة فوقنا ويتوهج لثوان ثم يخبو ... الشىء الجديد هنا هو أننا من موقعنا المتقدم هذا ، كنا نستطيع أن نرى بوضوح قمة (ماونزى) وذلك الركاب الطويل الذى يبلغ طوله 11 كيلومترًا والذى يصل بينها و(كيبو) ..

كان الضوء الأزرق يخرج من قمة (كيبو) فيمشى على الركاب لمسافة ما ، ثم يخبو بالتدريج .. لهذا ظلت (ماونزى) الممزقة مظلمة .. كأنها أخت باهتة الشخصية قصيرة القامة بالنسبة لأختها المسيطرة فارعة الطول بارعة الجمال (كيبو) .

همس (تارو) :

ـ « دكتور .. أنا لا أحب هذا الجبل .. إن الجبل الأبيض يتصرف بطريقة غريبة هذه المرة وأرى أن نعود .. »

هنا كان شيطان الاستمرار قد تملكنى ..

قلت له فى غيظ وصوتى ما زال مغلقًا من النعاس :

ـ « لو قالوا لى إن هذا الجبل هو نهاية العالم وإن الشياطين تعيش فوق قمته ، لاستمررت .. لم أقض كل هذه الأيام فى مشقة كى أعود .. »

ـ « المشقة لم تبدأ بعد .. »

أعود لأقول لـ (سينوريه) إن الأضواء الزرقاء مخيفة ؟ لا يا رفاق .. سوف أستمر .. هذا هو (علاء عبد العظيم) .. الأحمق المتهور الذى يضرب رأسه بالجدار ولا يعبأ بالصداع .. (فاجومى) كما يصف الشاعر (أحمد فؤاد نجم) أمثاله ..

قلت لـ (تارو) :

ـ « عد إذا أردت فإننى و(ماسومو) مستمران .. »

وهذا هو الوضع الفريد بالنسبة لعددنا الثلاثى .. إذا اتفق اثنان على شىء فلن يجسر الثالث على أن يتصرف وحده .. لو اتفقت و(ماسومو) على الصعود فلن يجسر (تارو) على الهبوط وحده، ولو اتفق و(تارو) على العودة فلن أجسر على استكمال الرحلة وحدى ..

ثم نظرت إلى ساعتى فوجدت أن أمامى ساعة أخرى من النوم، لهذا أدرت ظهرى له وتثاءبت :

ـ « نادنى بعد ساعة .. »

وغبت فى عالم الأحلام ..

* * *

- 5 -

الجثة التالية التى قابلناها كانت فى حالة أفضل ..

أعنى بحالة أفضل ، أنها كانت أقل إفزاعًا لنا .. كانت قد تحولت إلى هيكل عظمى .. صحيح أنه كان هيكلاً صارخًا ، وصحيح أنها كانت مقيدة إلى وتد مثل سابقتها ، ذلك الوتد الذى يمكنك أن ترى الآن كيف اخترق الحوض ومر بين الضلوع عابرًا فقرات الرقبة ليخرج من الفم الصارخ .. لكن منذ متى تخيف الهياكل العظمية الأطباء ؟ حتى بالنسبة للجثث كانت هناك جثث (علمية) هى التى نقابلها فى المشرحة وتبدو أقرب إلى الخشب .. وكانت هناك جثث (ساخنة حية) هى التى نقابلها فى الحوادث وعلى أسرة المتوفين .. طبعًا لم أستطع قط أن أجد راحة مع النوع الثانى ، بينما كان بوسعى استكمال شطيرتى وأنا أتعامل مع النوع الأول ..

لكن لك أن تتصور ذعر مرافقىّ حين شاهدا هذا المنظر .. جميل أن تشعر بأنك أشجع الثلاثة .

هتف (ماسومو) وقد عاودته الرجفة التى لا تفارقه إلا نادرًا :

- «يا ويلى ! ماذا يحدث فى هذا الجبل ؟ إن المكان ملعون يا دكتور ! ملعون ! »

سألته متحققًا :

- « ألم تسمع قط عن شىء كهذا ؟ »

سقط على ركبتيه على الأرض وراح يبكى والمخاط يبلل شاربه الكث ، وهتف :

- « نعم .. لم أسمع يا دكتور .. لم أسمع .. ودعنى أعترف لك بشىء مهم .. أنا لا أعرف شيئًا عن الجبل منذ يومين .. فلم أصل قط إلى هذه النقطة !! »

كان هذا الاعتراف مثيرًا للقلق فصحت وأنا أركع على الأرض جواره :

ـ « ماذا ؟ وكل ما قلته عن براعتك والجبل الذى تعرفه كراحة يدك ؟ »

ـ « كنت أحسب مهمتنا الصعود لا أكثر .. وقررت أن أجرب .. لابد من مرة أولى كما تعلم ! »

أيها الوغد الأحمق ! ولا تجرب إلا معى أنا .. ولمجرد أن يضاف جبل (كليمنجارو) إلى السيرة الذاتية الخاصة بك ؟ أى أنك فى الواقع مثلنا تمامًا ..

صحت به وأنا أقاوم رغبة محببة فى فقء عينيه :

ـ « لكن اتجاهنا صحيح .. أليس كذلك ؟ »

ـ « بلى .. سمعت من المتسلقين أن الناحية الشرقية هى أسهل النواحى للتسلق حيث تندر الثلوج .. »

ـ « سمعت ؟!!!! »

يا للغباء !!

ووقفنا بعض الوقت نتدارس قرارنا .. لا مجال

للتراجع ولا الاستسلام .. سوف نواصل التسلق .. سوف أقابل (كوكارسكى) لو كان حيًا وأقنعه أو أعطيه الخطاب الذى معى ..

بالمناسبة .. هل ما زال الخطاب معى ؟

بيدين متجمدتين مددت يدى أبحث فى جيب سترتى ..

هذا هو والحمد لله .. ولكن .. ترى ما الذى كتبه (سينوريه) لذلك الرجل ؟ أكره أن أكون متلصصًا معتديًا على الخصوصيات ، لكن أعتقد أن عبارات الخطاب قد تمنحنى شيئًا من الفهم .. لابد من أن أفتحه .. لابد ..

هكذا ابتعدت عن الشاهدين ، وعالجت المظروف حتى فتحته وفتحت الورقة بالداخل ..

كانت بيضاء من غير سوء ..

ما معنى هذا ؟ كيف ؟ لماذا أرسلنى (سينوريه) بورقة بيضاء كل هذه المسافة ؟ هل أخطأ ؟ كيف يخطئ فى أمر هين كهذا ؟

وكنت قد وصلت درجة من الإرهاق و(البارانويا)
تسمحان لى بافتراض أى شىء .. وكان ما افترضته
هو أن الجبل قد محا ما كتب فى الخطاب ..

لم لا ؟ الجثث على الخوازيق فى كل موضع ،
والأهالى خائفون ، والضوء الأزرق الغامض يخرج
من (كييو) ، و(لواما) تجول بعد ما شبعت موتًا ..

ألا يعنى هذا أن الخطابات قد تمحى فى جيوبنا ؟

استدرت للبائسين كأننى (هانيبال) يدعو قواته
لاستكمال رحلتها عبر جبال الألب وصحت :

ـ « هيا يا شباب ! »

* * *

حقًا صار التسلق عسيرًا جدًا ..

الزاوية التى ترتفع بها الصخور صارت شبه
قائمة .. الآن صرنا نحتاج إلى التمسك بالصخور

جيدًا بأيدينا المكسوة بالقفازات .. وننتظر حتى نصل إلى منحدر زاويته حادة نوعًا ...

هل سنحتاج إلى استعمال الآلات الرهيبة التى أتطير منها : المخراز والركاب والحبال ؟

إن الثلج بدأ يتكاثر والهواء صار أكثر رقة وقد فرغنا من ارتداء آخر ما كان فى جعبتنا من ثياب .. أضف لهذا منظر القلنسوات الصوفية على رءوسنا ..

إننى أتسلق (كليمنجارو) !! إننى أتسلق (كليمنجارو) !!

من يصدق هذا ؟ أنا نفسى لن أصدقه لو سمعته فيما بعد ..

لكننى كنت أطمئن نفسى من حين لآخر كى أومن أن الأمر ليس مستحيلاً ..

ـ « إنه من أسهل الجبال تسلقًا .. هو ليس (إفرست) على الإطلاق ، وكل الكتب تقول هذا . »

ـ « ليس مستحيلاً .. ليس هذا (إفرست) على كل حال .. لقد كان الإنجليز يتسلقون جبال الألب عام 1750 بثيابهم العادية .. ثياب الخروج والقبعة والعصا .. وربما اصطحبوا معهم نساءهم .. »

ـ « إن (كليمنجارو) أجمل بكثير حين تراه من موضعنا هذا .. كما أنه ليس تحديًا للرجولة يستحق أن ترد عليه .. إن التحدى الحقيقى لرجولتك هو (الهيمالايا) .. »

وهمست للجبل وأنا ألهث من البرد والجَهد وقلة الهواء :ـ

ـ « سأهزمك أيها الجبل الأبيض .. أنت لست (إفرست) على الإطلاق .. تذكر هذا .. »

إلا أن جزءًا فى أعماقى كان يهتف بى : لا تهرج يا فتى .. ليس الأمر للهواة .. أنت تعرف أنك لن تنجح .. على الأقل كان ينبغى أن تملك خبرة سابقة مع جبال أصغر .. وأعلى جبل تسلقته فى حياتك كان

كومة الرمال أمام باب مدرستك ، والذى تركه عمال البناء هنالك عامًا حتى اختفى تمامًا ..

(برنادت) قالت إنه سهل التسلق .. جميل ! هذا مطمئن .. ولكن ما هى خبرة (برنادت) العظيمة فى التسلق حتى تثق برأيها ؟

الحقيقة أن الصعود بهذه الطريقة لمدة ساعة يشعرك بأنك كنت تصارع (كينج كونج) ..

وكان قلبى يرفرف فى صدرى كالورقة ..

أما السؤال الأهم فهو : كيف نبيت ليلتنا عندما يأتى الليل ؟

★ ★ ★

لم أعرف طبعًا أنه فى (سافارى) فى هذا الوقت بالذات ، فرغت (برنادت) من القىء الصباحى وهى عادة محببة لدى الحوامل .. الحقيقة أن معدتها لم تعد على ما يرام على الإطلاق وإن كان الحمل جزءًا

مما حدث .. الجزء الآخر هو قرحة اثنى عشر بدأت تولد بسبب التوتر ..

غسلت وجهها وأسنانها ومضمضت فاها ثم خرجت من الغرفة ..

اتجهت إلى مكتب المدير فى ثقة وإصرار ..

ـ « صباح الخير يا دكتورة (عبد العظيم) .. »

ـ « صباح .. »

كان هذا هو الرد المقتضب الذى قالته للسكرتيرات ، ثم قرعت باب المدير ودخلت ..

كان جالسًا يلتهم إفطارًا سريعًا مكونًا من الكرواسان والقهوة ، فلما رآها ابتسم فى حرج ودعاها إلى الجلوس .. وكانت قد جلست فعلاً على كل حال ..

قالت بصوت مبحوح :

ـ « أنت تشعر بما أشعر به .. أليس كذلك ؟ »

ابتسم من جديد وقال :

ـ « من البداية .. وهى علامة مطمئنة على كل حال .. ما دمنا مستمرين فى القلق ولم نشعر براحة مفاجئة ! أى أن الخطر ما زال داهمًا .. لم ينته شىء بعد !! بل قد يكون هذا دليلاً واضحًا على أننا نهلوس .. »

نظرت بثبات فى عينيه اللتين وارتهما العوينات نوعًا ، وقالت :

ـ « الأمر أكبر من ذلك .. وأنت تفهم ما أعنيه .. »

ـ « بل لا أفهم .. »

ـ « هذه الرحلة لم تكن ضرورية .. اختيار (علاء) لم يكن مناسبًا .. قبولى أنا كان أسهل من اللازم .. هل فهمت ما أريد قوله ؟ »

هذه المرة لم يجادل أكثر .. نزع عويناته وراح يفرك عينيه بإصبعين من فرط إرهاق ، وقال :

ـ « نعم أفهم .. بل أحاول أن أفهم .. »

ثم نظر لها ، وللمرة الأولى أحس الاثنان بشعور التوتر يزول ليفسح الطريق لشعور أخطر : الذعر الذى تشعر به حين تفصح قدرات غامضة فى نفسك عن وجودها ..

* * *

- 4 -

معسكرنا لتلك الليلة كان فوق حافة صخرية بارزة .. وكان الجليد يكسو الأرض الآن .. من تحتنا يغفو الوادى الجميل ومن فوقنا يطل الأخ (كيبو) الرهيب .. يبدو دانيًا لكنه كعادة (كليمنجارو) كاذب كبير ..

لم يفت (ماسومو) أن يملأ حقيبته - مكان الثياب الثقيلة التى أخرجها - بأخشاب جافة .. الكثير منها .. وهكذا كان بوسعنا أن نشعل النار ، وكانت له طريقة معينة تقوم على تبليل الخشب بشكل معين ؛ وبالتالى يحترق ببطء شديد فلا ينفد سريعًا ..

فى الحرب العالمية الثانية فى أثناء حصار (لندن) ، كان هناك نوع من المواقد تبتاعه ربات البيوت يمكن إشعاله بجريدة .. وكان ملحق جريدة (صنداى تايمز) يصلح لإعداد وجبة لأسرة بعد ما تبلله ربة البيت بالماء كى لا يحترق بسرعة ..



معسكرنا لتلك الليلة كان فوق حافة صخرية بارزة .. وكان الجليد
يكسو الأرض الآن ..

لكن النار ظلت قليلة جدًا برغم هذا ، وشعرت أن بوسعى أن أتمرغ فيها .. ألتهمها .. أبتلعها ....

وشعرت بشفقة بالغة على مرافقىّ البائسين اللذين لم يعتادا إلا الحر .. كيف يتحملان ؟

أما القلق الأعظم فكان بصدد حالتى العقلية .. حتى اللحظة يبدو عقلى حديدًا .. صحيح أنه يعمل بشكل أبطأ من اللازم ، لكنه يعمل على الأقل .. متى أبدأ فى الهلوسة والتقييم الخاطئ للأمور ؟ هذه هى اللحظة التى يثب فيها المكتشفون من أعلى الجبل ، مثل لحظة جنون الضائعين على طوف فى المحيط ، حين يشربون الماء المالح فيجنون ويلقون بأنفسهم فى البحر ..

قلت لهما وأنا أنتهى من عشائى :

ـ « أعتقد أنه من الحكمة أن نربط أنفسنا بحبل غدًا .. هذا يجعل الأمور أكثر أمنًا .. »

هكذا لن يسقط أحدنا فى حفرة أو تزل قدمه ، والأهم أننا لن نفقد بعضنا ..

ونظرت لأعلى ..

إن المرحلة التالية عسيرة حقًا .. يوشك الجبل أن يكون رأسيًا .. لابد أن هذه هى الدرجة الخامسة .. ربما السادسة لو كانوا قد اخترعوها ..

* * *

فى الساعة الواحدة بدأ الكل فى الصراخ ..

كانت تلك الأشياء تهاجمنا ..

كلا .. لم تكن أشياء .. كانت . بل كانت أشياء .. لا أدرى حقًا ما يجب أن أقوله ..

كانت تنهمر علينا من أعلى .. فى البدء حسبناها كتلاً جليدية ، ثم أدركنا أنها ليست كذلك .. كانت تشبه قصاصات عملاقة من الورق .. ثم تقترب أكثر فتدرك أنها شياطين أو وحوش عملاقة .. ثم تصطدم بنا فنشعر بأنه لا ملمس بها .. لكنها حين كانت تمر باللهب المشتعل كانت تتوهج .. بالضبط تتوهج كأنها فراشات عملاقة تحترق ..

الحقيقة أنها كانت أقرب إلى مؤثرات CGI تمت إضافتها بالكمبيوتر إلى المشهد ..

كنا غارقين فى سيل لاينتهى من هذه الأوهام .. وهى ليست بالضبط تجربة محببة .. حتى لو أقنعت نفسك أن الجسم السابق كان وهمًا ، فإن الجسم القادم يبدو حقيقيًا إلى درجة مروعة ..

وراح الجبل يهتز بصوت شيطانى غريب .

صوت يذكرك بالأنين .. فقط هو عال جدًا يوشك على أن يصم أذنيك ..

سقط (تارو) على الأرض ، ولم أعد أتبين (ماسومو) ..

لكن الهدف من كل هذا كان جليًا واضحًا .. ولاشىء سواه ..

وصحت فى الآخرين :

ـ « تماسكا ! هذه الأشياء أقرب إلى الدخان ! هى دعابة لا أكثر .. »

لكنى كنت أعرف ما هو أفضل .. لا أحد يداعب بهذه الطريقة .. أى نوع من المخلوقات هذه؟ هل كانت دائمًا فى الجبال؟ إن الجبال منطقة شبه مهجورة ومن الممكن أن تحوى نوعًا من الحياة لانعرفه ..

أم هى أشباح؟

حتى لو اختلفنا حول المصطلح فهذه الأشباح تبدو كأشباح وتتصرف كأشباح .. إذن هى أشباح!

لابد أن الهجوم استمر خمس دقائق كاملة، لكنه انتهى .. لقد رحلت هذه الأشياء عنا ورقدنا على الحافة نرتجف ونلهث ..

ـ « أرواح! قلت لك إن هذه أرواح! »

قالها (ماسومو) بينما قال (تارو) رأيه القاطع:

ـ « هذا سحر قوى جدًا .. »

طبعًا .. لو لم يتكلما الآن فمتى يتكلمان إذن؟

فى هذه المرة بدا الأمر خطرًا بحق، وقد نظر لى الرجلان بعيون صلبة لا ترمش، وقال (تارو):

ـ « الآن يا دكتور .. لقد صار الأمر واضحًا .. نحن لن ننجح فى هذه المهمة وكان من الحماقة أن بدأنا أصلاً .. إن الجبل ما زال صامدًا .. قمة (كييو) بعيدة فعلاً، وهذا وحده كفيل بإحباطنا .. فما بالك واللعنة تسيطر على هذا المكان ؟ لقد حان الوقت كى نعود .. »

وأضاف (ماسومو) وهو يرتجف من البرد والرعب :

ـ « نعم .. نعم يا دكتور .. وأنا أوافقه .. »

قلت له فى وهن :

ـ « سأدفع لك ما تريد .. الكثير من الشلنات .. أنت قلت إن ميتًا تملأ الشلنات جيبه خير من حى فقير .. »

قال فى صدق :

ـ « أومن بهذا من كل قلبى ، لكن ساقى لا تؤمن به .. إنها لن تطاوعنى على أية خطوة أخرى .. »

هذه المرة أدركت أن الرحلة قد انتهت ..

ولا أكتمك سرًا .. لقد راق لى الأمر على الرغم منى .

ونظرت لأعلى إلى القمة الشريرة فرأيتها قد بدأت تتوهج بذلك الضوء الأزرق الغريب ..

* * *

وحينما غمرت الشمس الجليد كنا قد بدأنا خطواتنا الأولى للنزول ..

كان علينا أن ندور حول الحافة الصخرية ، لأن النزول من تلك الجهة لم يعد ممكنًا .. وهكذا درنا حولها بعض الوقت ، فقط لنكتشف أنها مغطاة بجليد سميك فى وضع رأسى تمامًا .. ولمست قدمى السطح فشعرت كأنما أقف على سطح من الصابون ..

ـ « هذا لن يصلح .. سنسقط ونهشم أعناقنا ببساطة .. »

فتح (تارو) الحقيبة وأخرج الحبل .. هذا وقته هذه المرة ..

مد يده فعقده حول خصره ، ثم تـرك مسـافة ثلاثـة أمتار وعقده حول خصرى .. وكرر الشىء ذاتـه مـع (ماسـومو) .. لـم أفهم حكمـة هذا الترتيب .. لكـن (ماسومو) راق له الأمر :

- « (تارو) أقوانا بنيـة وسـوف يكون دائمًا فى مستوى أعلى منا ، وبالتالى سيكون أقدرنا على حمل الآخرين لو انزلق أحدنا .. »

فهمت .. هذه أمور لا تتعلمهـا فـى كليـة الطـب غالبًا ..

وهكذا - مربوطين بالحبـال كأننـا الأخ (بيرد) أو (روالند امندسن) - أخرج (ماسومو) المطرقة ودق خابورًا محكمًا فـى الجدار الصخرى فتسـاقط الجليد غبـارًا أبيض .. وثبت مـا يشـبه الركـاب ليستطيع الوقوف عليه ممسكًا بالخـابور وواضعًـا قدمـه علـى الركاب .. وهكذا بدأت الهبوط أنا وبعدى (ماسـومو) عبر جدار شبه رأسى ..

الحقيقة أننى لم أحاول قط النظر إلى أسفل .. لكنى

جربت مرة وكنت أتوقـع أن أرى الأرض عبارة عن نقاط صغيرة ، لكنى لم أر شيئًا على الإطلاق بسبب تلك السحابة البيضاء .. ضباب ؟ أم لعلها سحب ؟ يا للكارثـة ! أنا لا أذكر ارتفاع السحب ، لكن لو قال لى أحد إن هذا الذى عند قدمـى سحب ، وإننـى فوق مستوى السحاب الآن لفقدت وعيى .. لا .. مستحيل .. هذا ضباب .. بعون اللّه هذا ضباب ..

هبطنا على جرف صخرى بارز .. فوقف (تارو) يكرر مـا فعلـه .. طبعًا لم يستطع استرداد الخابور الأول ولا الركاب .. لابد أن المتسلقين المحترفين يتبعون طريقة مختلفة .. لكننا ـ بالطبع ـ هواة يثير منظرهم الشفقة وربما السخرية .. لابد أن الجبل يرمقنا وهو يوشك على الانفجار ضحكًا .. أتمنى ألا يحدث هذا كما تمنى الأعرابى ألا تأخذ سقف بيته رقة العبادة فيسجد !

من جديد رحنا نتدلى .. هكذا كنا نهبط ستة أمتار فى المرة ..

تبًا ! ما كل هذه الوعورة ؟ لماذا لم نهبط من حيث صعدنا وقد كان الأمر أكثر سهولة ؟!

على كل حال أمامنا بضعة أمتار أخرى وتستوى الأرض من جديد ... فقط فلنحاول ألا ....

فجأة سمعت صرخة من أعلى..

رفعت رأسى لأرى ما يحدث فوجدت (تارو) يهوى فوق رأسى ؛ وقد فقد الخابور الذى تشبث به تماسكه !

* * *



- 3 -

تنحيت جانبًا فـى اللحظـة المناسـبة فقـط ليمـر (تارو) على بعد سنتيمترات منى ..

وشـعرت بشدٍّ هائل فــى الحبـل حـول خصـرى ، فغرسـت أظفـارى فـى الصخـور مـن دون تفكـير .. تخيلت أننى برص يتشبث فى شرخ جدارى ..

احتضنت الصخور الثلجية احتضانًا .. ونظرت لأسـفل فوجدت (تارو) يتدلى من الحبل الذى يمسك بخصرى ، ومن الجلى أنه لا توجد أرض من تحته .. إنه معلق كالبندول .. وكل ثقله على خصرى المسكين ..

ونظرت للجهة الأخرى فوجدت (ماسومو) ممتقـع الوجه - لا أعرف كيف - يتشبث بالصخور مثلى ..

هذه هى نتيجة فكرة الحبل النيرة ..

من الناحية الإيجابية هى أنقذت (تارو) من التهشم

على الصخور .. لأنه كان سيسقط عشرة أمتار على الأقل وربما أكثر حتى يصطدم بحافة صخرية ما .. من الناحية السلبية الأمر يشبه التفاعل الذرى المتسلسل أو قطع (الدومينو) التى تسقط بعضها .. يكفى أن أفقد تشبثى وسوف أتبع (تارو) .. ثم يتبعنا (ماسومو) ..

راح (تارو) يتأرجح محاولاً الاقتراب من الجدار ، فصرخت فيه :

ـ « كف عن التارجح يا أحمق ! أنت تفقدنى القدرة على التماسك !! »

هذه هى دعابة الجبل وإنها لقاسية ..

هناك حل سهل للخروج من هذا المأزق هو أن أقطع الحبل الذى يربطنى إلى (تارو) ، لكن أى حل هذا ؟ وأية أعصاب سأجدها وأنا ألقى به إلى الهاوية ؟

لكنه كان قد توصل إلى الشيء ذاته .. صاح بى :

ـ « دكتور ! لا يوجد حل ! اقطع الحبل الآن !! »

آه ! إنه الإيثار ! وهو آخر ما أتمنى سماعه الآن ..

ـ « دكتور ! إننى فعلاً لا أشعر بقدمى .. لقد سرى فيهما التنميل .. لابد من خلاص ! »

آه ! إنه التنميل وهو لا يجعل الحياة أجمل ...

ـ « دكتور ! من الممكن أن أسقط فوق الحافة .. لن أموت .. أنا متأكد من ... »

ـ « هلا خرست باللّه عليك ؟!! إننى أفكر وأنت تقطع أفكارى كلما تبلورت !! »

ومن تحتى قال (ماسومو) وهو يناولنى ما اكتشفت أنه سكين ضخمة :

ـ « الرجل على حق .. ناوله السكين يا دكتور .. لو كنت مكانه لقبلت ! »

ألن تخرس أنت الآخر ؟ تقول هذا لأنك لست فى دشته ...

ما الحل الصحيح ؟ رباه .. ما الحل الصحيح ؟

* * *

ـ « من هذا الجانب !! »

كان الكلام بالإنجليزيـة وقد سمعته يـأتى مـن اليسار ، فعرفت القائل قبل أن أراه ..

إنه (جولد سميث) المجذوب الأمريكى الذى يجوب الجبل مبشرًا بشىء ما لا أفهمه .. لم نره منذ أيام وحسبتنا نسينا كل شىء عنه ..

الآن هو يقف على جرف صخرى غير بعيد من مكاننا .. لا أعرف كيف وصل هناك ولا منذ متى .. كل ما أعرفه هو أنه كان مدثرًا بعدة معاطف من نفس الطراز المبقع .. وكان يحمل فى يده حبلاً غليظًا يلفه كأنشوطة مرارًا .. ثم طوح به باتجاه (تارو) وأمره أن يمسك به ..

لم يكذب (تارو) خبرًا فتمسك بالحبل ، بينما راح (جولدسميث) يجذبه نحو الجرف الذى يقف عليه .. بهذا صار (تارو) ممسكًا بحبل يبدو أن الأمريكى ربطه إلى صخرة بارزة ، والآخر مربوط إلى خصر (تارو) متصلاً بى .. أى أنه صار كأرجوحة معلقة من طرفين ..

ـ « تشبث بالحبل الذى فى يدك جيدًا .. »

لم يفهم (تارو) فأعدت الكلام بالفرنسية ..

ثم صاح بى (جولدسميث) بلهجة آمرة :

ـ «اقطع الحبل من ناحيتك أيها العربى ! »

مددت يدى إلى الحبل وعالجته .. بصعوبة نوعًا لأنه كان غليظًا ، لكنه انقطع فى النهاية وهوى (تارو) كالأرجوحة نحو الجرف .. مد (جولدسميث) يده يعاونه على التسلق ..

وبعد دقائق بدا أن محنتنا انتهت ..

ثم إن الأمريكى أصدر لنا أمرًا آخر :

ـ « حاولا أن تقتربا بحذر لتكونا معنا على نفس الحافة .. »

وهو ما استغرق عشر دقائق ، لكننا فى النهاية وضعنا أقدامنا على الأرض الصلبة الزلقة جوار الرجل الذى لم يعد يبدو لى مخبولاً إلى هذا الحد ..

صافحته مصافحة القفازات ، وقلت له فى صدق :

ـ « شكرًا يا سيدى .. لولاك !! »

قال وهو ينظر لأعلى :

ـ « أنا وسيلة .. إن الرجل ينفذ أفكاره بوساطتى .. لكن ثق أن هذه الفكرة ما كانت لتأتينى لولا أنه فكر فيها .. كما قلت لك إن الرجل نادر .. إنه لعبقرى .. شاعر لم يكتب شعرًا ، ورسام لم يرسم لوحة .. وقد خطر لى أنه من المحزن أن تصلوا إلى هذه المسافة كلها ولا تقابلوه .. تعساء الحظ هم من داروا حول القمر ولم يهبطوا فى بحر العواصف .. »

قلت له وأنا أجلس على الأرض شاعرًا بأن لحم وجهى يتمزق من البرد :

ـ « هل تأتى معنا ؟ »

اتسعت عيناه وارتجف لهول الفكرة :

ـ « لا .. شكرًا .. أنا لا أصعد إليه .. أنا هنا أحوم حوله ككلب لا يجسر على الابتعاد ولا يجسر على الاقتراب .. لكنك ترى أنه يثق بى .. يصدر لى الأوامر أحيانًا وهذا لا يتأتى إلا عن حب عميق .. إنه يحبنى .. أعرف هذا .. وهذا ما يمنعنى من الوثب من فوق هذا الجبل ... »

ثم راح يرمقنا فى فضول وشىء من الحسد :

ـ « أنتم ستقابلونه .. كلموه عنى .. امتدحونى .. »

قلت فى صبر :

ـ « يجب أولاً أن نعرف كيف نصل إليه .. »

هتف فى حرارة :

ـ « أنتم بالفعل على مرمى حجر .. ولكنكم اخترتم أصعب الطرق .. »

نظرت إلى (ماسومو) الأبله فى غيظ وقلت :

ـ « ليس هذا ذنبى بل ذنب الدليل .. »

أمسك بيدى كأنما يقتاد طفلاً إلى الحمام .. ومشى بضع خطوات ثم أشار إلى ممر بين جدارين لم أفطن له من قبل ، وقال :

ـ « هنا .. تدخلون من هنا .. إن الدرجات ترقى بكم إلى مكانه .. »

درجات ؟ عم يتكلم هذا المجنون ؟

قال ضاحكًا وقد رأى دهشتى :

ـ « نعم .. نعم .. درجات .. إن الرجل لعبقرى .. لقد أعد كل شىء .. هناك درجات منحوتة فى هذه المدخنة القديمة .. لا تنس أن (كييو) بركان خامد .. إنه ليس مصمتًا من الداخل كله .. »

ووجدت نفسى أنظر فى دهشة إلى الممر بين الجدارين ..

معنى هذا أن الجواب كان قريبًا جدًا .. ومعناه أيضًا أن الرجل - أيًا من كان - لا يعيش فوق القمة بالضبط .. فما زال يفصلنا عنها الكثير ..

ناديت الرجال وبلا تردد دخلنا الممر ..

هتف الرجل فى لهفة :

- « لحظة .. هل مع أحدكم لفافات تبغ ؟ »

ووضع أصابعه أمام فمه كأنما يدخن ..

فتش (ماسومو) فى حقيبته وأخرج علبة كاملة من التبغ الأمريكى وناول الرجل إياها ، ثم أخرج القداحة وأشعل له واحدة ، فامتص دخانها بيد راجفة كأنما يحاول امتصاص الكون كله ..

- « شـ .. شكرًا .. »

لم أكن قد رأيت (ماسومو) يدخن على الأقل فى رحلتنا هذه ، وقد لاحظ التساؤل فى عينى فقال :

ـ « وجدتها على الأرض فى (فوى) ، وكنت أنوى بيعها .. أنا لا أتخلص من شىء أجده أبدًا .. »

هنا سمعنا الرجل يصيح فى لهفة :

ـ « أنتم سترونه ! ذكروه بى .. امتدحونى لديه ! »

ثم بدأ صوته يتلاشى وهو يصيح من الخارج :

ـ « لا تنسونى ! »

- 2 -

أضأت الكشاف وسلطت ضوءه على الجدران .. حقًا يسهل الاعتقاد بأننا فى صدع جيولوجى عتيق .. هناك درجات محفورة بشكل بدائى تقود إلى أعلى ..

تبادلت مع الرجلين نظرة ثم رحنا نرتقى الدرج ..

إذن نحن فى كهف طبيعى داخل (كيبو) .. كهف لم يره أحد قط .. هذا يجعل الأمور مفهومة أكثر .. من العسير أن أتخيل بيتًا على قمة الجبل وسط الثلوج .. دعك من أن يعانى (جولدسميث) كل مشقة التسلق التى بدأت أعتقد أنها مستحيلة .. إن الأمر بهذه الطريقة يبدو أقرب إلى القدرات البشرية ..

ونظرت لأسفل فلم أر قاعًا عميقًا مخيفًا .. يبدو أننا حين كنا نقف على الجرف كنا بالفعل فى قاع هذا التكوين العجيب ..

لم يكن المكان أكثر دفئًا .. إنه بارد تمامًا .. لكنه على الأقل يحميك من تيارات الهواء المخيفة بالخارج ..

وقال (تارو) وهو يشعل كشافه بدوره :

ـ « المكان مخيف .. لن نتقدم أكثر .. »

واصلت التقدم ولم أعلق .. لقد وصلت الأمور إلى حد يستحيل معه التراجع .. لابد أن نعرف .. أن نفهم ..

نصعد الدرج ببطء شديد .. وأضواء كشافاتنا تلقى ظلالاً مخيفة على الهوابط والصواعد التى تملأ المكان من حولنا .. أنظر لأعلى فأدرك أن هناك فتحة ما على ارتفاع عشرة أمتار ..

لقد دنونا جدًا ..

وراحت الكلمات تتردد فى ذهنى بينما نحن نصعد ..

« إنه فيلسوف .. لكنه لا يعبر عن فلسفته بالكلمات ولكن بالأفعال .. وبعض أفعاله قاسية والحق يقال .. »

« هذا الرجل لن يترك القمة أبدًا .. لقد صار وهى شيئًا واحدًا حتى إنى لا أعرف من منهما وجد أولاً .. »

« يكفى أن تطلق عليه اسم (الرجل) .. وصدقنى أن القبائل هنا تفهم ما أقول أكثر منك .. »

« الرجل رائع .. دعنى أؤكد لك هذا .. إنه رائع .. كان حكمة كل الفلاسفة قد قطرت وزرعت فيه .. »

« أنتم ستقابلونه .. كلموه عنى .. امتدحونى .. »

أرى الجثة التى سلخ جلدها وعلقت على وتد ..

أرى العجوز (لواما) تضحك فى هستيريا ..

أرى الأشباح تهاجمنا فى الظلام ..

أرى الضوء الأزرق من (كييو) ..

من هذا الرجل ؟ هل هو (كومارسكى) ؟ ماذا يفعله هنا وما نوع التجارب التى يمارسها ؟

هل هو المسئول عن كل ما رأيناه من أهوال ؟ لو كان كذا فهو ليس بشريًا .. إنه غول ..

نحن الآن على باب الفتحة .. يمكننا أن ندخل ..

أخرجت المسدس وصوبته إلى أعلى كما يفعلون فى الأفلام الأمريكية ، ووثبت إلى الداخل مسلطًا ضوء الكشاف فى كل صوب .. إنها الرجفة فى يدى التى تلقى كل هذه الظلال المجنونة ..

كان المكان خاليًا ..

وأدركت بسهولة أنه خالٍ منذ زمن بعيد ...

* * *

بعد جولة قصيرة فى المكان أدركنا أنه لا يوجد أحد هنا .. إلا البرد والظلام ورائحة العطن ..

والآن من حقك أن أصف لك المكان .. أنا لا أعرف كيف نشأ ولا كيف تم بناؤه ، لكنى أعتقد أنه أخدود صخرى طبيعى .. استعمل الساكن جدارين منه وبنى جدارين آخرين باستعمال الخشب .. أى أن المكان نصف طبيعى نصف صناعى ..

إنها قاعة واسعة .. بها مدفأة ومنضدة وبقايا طعام لم يمس منذ زمن قديم حتى صار أقرب إلى الآثار .. هناك مكتبة بدائية من الخشب .. وهناك فراش جوار المدفأة .. واضح أنه لم يمس (ولم يرتب) منذ زمن ..

على الجدار بعض الملصقات التى تمثل تفاعلات حيوية معينة ..

لكن الجزء المهم من الموضوع هو هذا الشىء فى ركن المكان .. شىء يذكرك بثلاجات عرض المحلات الأفقية .. لكنه ليس ثلاجة وإلا فلماذا تخرج منه كل هذه الأسلاك والمدخنة التى تخترق سقف المكان ؟

هل هو فرن طعام ؟ لا .. واضح أن المدفأة والموقد يرسلان دخانهما إلى مدخنة أخرى .. وكانت هناك مراوح صغيرة تذكرنى بالشفاطات التى يضعونها فى الحمامات .. يبدو أن هذا نظام تهوية كى لا يخنقه أول أو ثانى أكسيد الكربون المنبعثان من المدفأة ..



شيء يذكرك بثلاجات عرض المحلات الأفقية .. لكنه ليس ثلاجة
وإلا فلماذا تخرج منه كل هذه الأسلاك والمدخنة ؟

كل شىء فى الحجرة يوحى ـ عامة ـ بأهمية الثلاجة الأفقية هذه واستقطابها للغرفة كلها .. كأنما وضع الشىء وبنيت الغرفة فوقه ..

كانت هناك أوراق على الفراش امتلأت بالمعادلات والأرقام .. على أننى لاحظت أن اللغة المستخدمة تستعمل حروفًا لاتينية لكنها غير معروفة لى .. ثم فطنت إلى أنها بولندية على الأرجح ..

ونظرت حولى فى الحجرة واتخذت قرارى : هنا كان يعيش (كومارسكى) بالفعل .. كل شىء يدل على ذلك .. الرجل لم يمت .. هذا ما توقعه (سينوريه) وكان محقًا ...

كانت هناك أوراق كثيرة مكتوبة بالفرنسية أرجأت قراءتها بعض الوقت ....

قلت لـ (ماسومو) ما معناه :

ـ « لو كانت معك بعض الأخشاب فلتشعلها لنا وحياة والدك .. هاهى ذى المدفأة .. »

وبالفعل بدأت النار تتوهج فى المدفأة فانبعث الدفء الجميل فى المكان .. ونزعت أكثر ثيابى والقلنسوة والقفازين .. هكذا بدأت أشعر براحة ..

قلت لـ (تارو) :

ـ « أقترح أن تبقى المسدس فى يدك .. لا نريد مفاجآت قذرة .. أريد بعض الوقت كى أطالع هذه الأوراق .. أعتقد أن فيها تفسير كل شىء .. »

ثم حملت الأوراق فى يدى واتجهت إلى الثلاجة الأفقية ـ لو كانت ثلاجة ـ وحاولت فتحها .. هنا حدث شىء غريب ..

* * *

- 1 -

فجأة راح الجهاز يهتز .. ثم رأيت الأسلاك الخارجة منه تتوهج بلون أزرق غريب .. بعدها عاد الهدوء .. أيا ما كان هذا التفاعل فقد انتهى ..

مددت يدى ورفعت الغطاء وشهقت ..

لقد رأيت الكثير من الجثث فى هذه القصة على ما يبدو .. لكنى تمنيت لو كانت هذه الأخيرة .. لم تكن متحللة جدًا ، وأدركت من الملامح أن هذا رجل أوروبى مسن .. خصلات شعر أبيض أشيب على الجبين وبشرة شاحبة .. لا إصابات .. إنما يرقد كأنه مومياء فرعونية من مومياواتنا .. سلام تام وشفتان مطبقتان على ما يشبه ابتسامة خبيثة ..

لم يكن الجو بداخل الشىء باردًا لكن الضوء الأزرق الذى يملؤه من الداخل جعلنى أشعر بأن هذه طريقة معينة لحفظ الأنسجة ..

أما أغرب ما رأيت فكان مجموعة من الكرات الزجاجية متراصة حول الجثة كلها مهشمة .. تذكرك بالكرات الملونة التى يعلقونها فى أشجار الكريسماس ، لكن كل كرة كان يخرج منها نطاق من الأسلاك ..

ما معنى هذا ؟ تقنية معقدة جدًا لكنها (يدوية) لو كنت تفهم قصدى .. رجل بارع فى الكهرباء والميكانيكا هو من صنع هذا كله وليس مصنعًا ..

لكنى إذ أغلقت هذا الجهاز كنت واثقًا من شىء واحد : هذه الجثة جثة (كومارسكى) .. لا أعرف كيف ولا لماذا ولا ما يفعله هنا .. لكنى كنت واثقًا من ذلك .. هذا المكان مكانه .. ولا توجد آثار تدل على حياة من أى نوع .. إذن هو من يرقد هنا ... الأحمق المجذوب (جولد سميث) يجوب الجبل غير عالم أن سيده مات ، كما ظل الجان فى العذاب المهين لايعلمون أن سيدنا (سليمان) ـ عليه السلام ـ قد مات ..

سألنى (ماسومو) وهو يزيد اشتعال المدفأة :

ـ « ماذا وجدت ؟ »

قلت وأنا أجلس على المنضدة :

ـ « جثة طبعًا .. ماذا كنت تتوقع ؟ »

قال فى توتر :

ـ « دكتور .. هذا المكان شرير .. يجب أن نرحل حالاً .. إن حدسى لم يخننى قط .. »

ـ « ليس قبل أن أقرأ ما فى هذه الأوراق .. »

وعلى ضوء المدفأة المتراقص طالعت أولى الصفحات ..

وكان ما قرأته كافيًا كى ينتصب الشعر على مؤخرة عنقى ..

★ ★ ★

ـ « إلى الطبيب الشاب الذى سيقرأ هذه الأوراق : »

ما معنى هذا ؟ هل كان يتوقع قدومى ؟ كيف ؟

« عندما تجد هذه الأوراق سأكون قد مت منذ زمن .. نعم .. إن الجثة التى وجدتها فى (المفاعل Reactor) هى جثتى .. أنا الدكتور (إرنست كزومارسكى) العبقرى .. أنت تعرف أن الناس جميعًا عباقرة فى نظر أنفسهم ، لكننى بالفعل عبقرى ولن يخفى التواضع جزءًا من هذه الحقيقة .. »

نظرت للجهاز فى رعب .. لقد استعمل لفظ (مفاعل) فهل فى القصة شىء ما نووى ؟ فلأواصل القراءة :

« قد تعتقد للوهلة الأولى أننى كنت أجرى تجاربى على الروح .. لا يا صديقى .. لقد كنت متدينًا فيما سبق ، وأومن أن الروح لغز لا يمكن فهمه ، ولا أزعم أننى قد تجاسرت على دخول ذلك العالم الغامض ..

« لكن قراءاتى لبحوث اليابانيين وملاحظاتى الخاصة جعلتنى أدرك أن هناك نوعًا من الطاقة يحيط بنا نحن البشر فى حياتنا .. سمه الإكتوبلازم .. سمه الأورا .. سمه السيال الحيوى .. سمه أى شىء .. لكنها طاقة حقيقية وموجودة ويمكن استغلالها بشكل فيزيائى صارم ..

« مثلما يبرد الجسد من حرارته بعد الوفاة ، تتلاشى هذه الطاقة خلال ساعات .. ودون أية تفاصيل معقدة أقول لك إننى استطعت الحصول عليها من الفئران المحتضرة ومن القردة التى حقنتها بجرعات عالية من الإنسولين .. حصلت على تلك الطاقة نقية وإن كنت لم أدر كيف أستغلها ..

« ثم بدأت التجريب على المحتضرين من البشر فى وحدة (سافارى -1) .. ولاحظت ملاحظة عجيبة .. إن الاحتضار فى سلام ومن دون ألم لايعطينى من هذه الطاقة القدر الكافى .. يمكن أن

أقرب المشهد لذهنك باعتصار الليمونة .. كلما ضغطت أكثر كلما أعطتك عصيرًا أكثر ...

« الملاحظة الثانية المهمة هى أن هذه الطاقة تكون فى أعلى نشاط لها حين توضع فى حرارة منخفضة أو فى موضع مرتفع .. لا أعرف تفسير ذلك لكن هذه ملاحظاتى على كل حال .. كانت الطاقة تتوهج إذا ما جمعتها من مرضى الطابق الثانى أكثر منها مع مرضى الطابق الأرضى ..

« كان هذا حينما تسرب أمر تجاربى إلى إدارة (سافارى) .. ولم يكن الوغد الأسبانى (كاسونا) ممن يتسامحون .. وعرفت أننى سأطرد مجللاً بالعار .. كما انتابنى الكثير من الهلع .. لم أكن مؤهلاً لتحمل نتائج ما أفعل .. دعك من أنه كان أمامى الكثير مما يجب أن أفعله ...

« واتخذت قرارى الأخير والصائب .. سوف يعرف العالم أننى مت .. ثياب ممزقة ملوثة بالدماء ملقاة

جوار آثار أقدام ضباع .. هذا هو كل شيء .. لكني في الحقيقة سأولد من جديد ..

« وكما ترى فإن (كليمنجارو) يسيطر سيطرة عامة ويجثم على أرواح سكان (تنزانيا) وأكثر (كينيا) .. وبدا لي الإغراء قويًا .. إن ما يقدمه لي (كليمنجارو) هو :

« أ ـ مكان منعزل بعيد عن العيون .

« ب ـ موضع بارد .

« ج ـ موضع مرتفع .

« د ـ زاد لا ينتهي من الأهالي الذين لا يسأل عنهم أحد .. »

« كانت الخطة عسيرة لكني نفذتها بصبر .. كان هناك ذلك الأمريكي (جولد سميث) الذي يثق به رجال القبائل هنا .. وبمعونته استطعت الوصول إلى هذا الوكر يومًا ما منذ عشر سنوات .. وخلال عامين

تمكنت من تشييد هذا المكان المتواضع .. كان يمدنى بما أريد من مؤن .. ويؤمن بعبقريتى إيمانًا تامًا .. والحقيقة أنى لم أنزل هذا الجبل قط من حينها ...

« وهكذا صار بوسعى أن استكمل تجاربى على تلك الطاقة الغامضة التى أطلقت عليها (الظاهرة) .. يجب أن أتجنب ذكر بعض الحقائق .. لقد اضطررت للأسف لارتكاب فظائع كثيرة .. لم أكن قط قاسيًا لكنك تفهم أننى أحرقت كل سفنى ، ولم يعد أمامى إلا أن أستمر فى تجاربى .. يجب أن أنجح وأكون عديم الرحمة .. إن لى رجلين من قبائل (الكاشا) على استعداد لعمل أى شىء مقابل المال ، وقد سهلا لى بمعونة (جولد سميث) الجزء العنيف من الموضوع .. الاستدراج .. التعذيب .. ثم الحصول على تلك الطاقة المهمة ..

« لابد أنك رأيت (المفاعل) من الداخل ، واستنتجت ما تحويه تلك الكرات الزجاجية .. إنها (الظاهرة)

مكثفة وفى أفضل حالاتها .. كل كرة تساوى بائسًا من رجال القبائل ..

« كل المنطقة كانت تسمع عن أشياء .. عن قتلى .. عن الرجل الأبيض الذى يعيش قرب (كيبو) .. لكنهم شديدو التطير ولم يرغبوا قط فى رؤية ما يحدث بأنفسهم ..

« تعلمت كيف أستخدم هذه الطاقة للحصول على الكهرباء .. كيف أنير بها الكوخ .. لكن المفاعل كان يلقى دومًا بضوء أزرق غريب تلتمع له قمة (كيبو) من حين لآخر .. وقد اعتدت هذا التأثير ، واعتبرته مناسبًا ليقلل من ولع القوم بالاقتراب ..

« مرت السنون وعرفت الكثير عن تلك الطاقة المخيفة .. ومع الوقت بدأ (جولد سميث) يجن .. لقد اعتبرنى أتعامل مع لغز الكون ذاته .. بدأ يقدسنى بشكل غريب .. بالإضافة إلى أن هذه التجارب دمرت جهازه العصبى فعلاً .. وهكذا اضطررت إلى طرده ،

لكن الأحمق فضل أن يجوب الجبل وسط الثلوج من حولى كأنه كلب (سان برنار) .. وكان يحضر لى المؤن لكنه لا يقابلنى أبدًا .. وناسبنى هذا ..

« الآن بدأ الزمن يزحف علىّ .. إننى مصاب بالسكرى وارتفاع ضغط الدم .. وحالة قلبى ليست على ما يرام .. لاحظ أننى لم أتلق أية أدوية محترمة طيلة هذه الأعوام ..

« عرفت أننى أموت .. لكن فكرة الموت لم تثر رعبى .. ما أثار رعبى هو أن ألفظ أنفاسى هنا فتتوقف تجاربى العظيمة وكل ما عشت من أجله .. من المؤسى أننا نموت بعدما اكتسبنا ذروة الخبرة ..

« وهكذا بدأ مشروعى الأكبر .. بدأت بتحطيم كل البلورات كى يتحرر ما فيها من طاقة .. كنت بحاجة إلى قوة عظمى متحدة .. ويبدو أن هذه الطاقة كانت تعرف كيف تتحرر من خلال المدخنة فوق القمة .. تخرج منها وتعود لها .. لقد شهد الجبل أيامًا

مروعة .. الناس يرون أشباحًا وثمة أشياء مخيفة تهاجم البيوت .. وأفراد القبائل يرون الموتى بين أكواخهم .. أعتقد أن هذه كانت جميعًا هلاوس بصرية .. لا شك فى أن الناس فى الأسفل شعروا وسمعوا عن أشياء غريبة .. لابد أن كثيرين ذهبوا إلى (سافارى) وتكلموا ..

« بعد هذا كتبت هذه الأوراق .. وحين أفرغ منها سأدخل المفاعل وأرقد مع كل هذه الطاقة التى استخرجتها عبر عشر سنوات .. سأحاول - فى لحظات احتضارى الأخيرة - أن أبحث عن شاب قوى يتلقى كل ما لدى من علم .. شاب يستكمل تجاربى من النقطة التى انتهيت عندها ..

« أنا بحاجة إلى طبيب .. طبيب شاب قوى .. يجب أن يأتى إلى هنا ويفتح المفاعل ويتلقى طاقتى وطاقة مواضيع تجاربى .. أعتقد أن هذا سيجعله أنا آخر .. لكن كيف أحضر الشاب إلى هنا ؟ كيف أقنعه بتسلق

(كليمنجارو) ؟ كان هذا مستحيلاً حتى فكرت فى (سافارى) .. فى (سينوريه) الذى كان سبب توقف تجاربى .. ترى هل ما زال هناك ؟ هل ما زال حيًا ؟

« أعرف أننى أستطيع .. أعرف أننى سأجعله يرسل لى شابًا بحجة واهية .. سأجعله يقتنع ويقتنع كل أحبائه .. فقط أريد كل هذه الطاقة .. لو كانت تسبب هلاوس سمعية وبصرية للأهالى فإنها قادرة على الإيحاء ..

« والآن يا عزيزى الطبيب الشاب الذى لا أعرف اسمه .. لقد جئت .. لقد تلقيت (الظاهرة) .. إنها فى كل جزء من جسدك الآن .. ستجدنى بالتأكيد جثة هامدة، لكن طاقتى موجودة وهى داخلك الآن .. مع طاقة عشرات الأفارقة الذين ماتوا وهم يتعذبون ..

« سامحنى على ما قمت به .. وأتمنى لك حظًا سعيدًا فى تجاربك القادمة ..

بإخلاص : إرنست كومارسكى .. »

- ٥ -

فرغت من الأوراق فطويتها ..

ونظرت إلى الأوراق الأخرى التى كتبت عليها المعادلات بالبولندية ..

إننى أفهمها الآن يا رفاق .. ألا ترون هذا؟ أليس هذا فاتنًا ؟ تعلم لغة كاملة فى لحظات ؟

طويت الأوراق ووضعتها فى جيبى ، ثم نهضت وقلت بصوت آمر واثق لـ (تارو) و(ماسومو) :

ـ « عرفت ما ينبغى عمله .. الآن حان وقت العودة .. إنها ليست أسهل من التسلق .. »

قال (ماسومو) :

ـ « ما الذى عرفته ؟ »

ـ « هذه تفاصيل لا تهمك لكنها تعنينى أنا .. تعنينى كثيرًا .. »

أشعر بقوة وعزيمة غير عاديتين فى نفسى ..

لقد حكيت لكم هذه القصة فقط كى تفهموا موقفى .. إننى أزداد حكمة يا رفاق .. أفهم الحياة كما لم أفهمها من قبل .. من أجل الحقيقة أرسلنى (سينوريه) إلى الجبل بمهمة وهمية وبخطاب أبيض ، وأقنعتنى زوجتى الحبيبة بالذهاب وأنا لم أتسلق جبلاً فى حياتى ..

كل هذا من أجله يا رفاق .. من أجله ..

(سينوريه) كان يرتاب فى أشياء .. فلابد أنهم حكوا له عن الجثث المعلقة على أوتاد فى الجبل .. ولابد أنه تذكر شيئاً مماثلاً كان يحدث فى معمل (كومارسكى) منذ عشرة أعوام .. مع الفئران هذه المرة .. لابد أنه شك لكنه كان يشعر بدعوة خفية ترغمه على أن يرسلنى إلى الجبل ..

كل هذا من أجله يا رفاق .. من أجله ..

أنا عائد إلى (سافارى) ومنها لـ (مصر) ..،

عندى زوجة حبيبة وقريبًا طفل .. لكن عندى أيضًا هدف سام لحياتى ..

ترى كيف ستكون نتائج هذه التجارب لو جربتها مع زوجتى ؟ هل طاقة من نحب لها خواص مختلفة عن خواص الأغراب ؟ كيف تتفاعل طاقة حديثى الولادة مع الألم ؟ ترى كيف ستكون نتائج التجربة فى مصر ؟

سأدرس هذه الأوراق وأفهم كل شىء .. وعما قريب سيكون لدى مفاعلى الخاص ..

إن أمامى مستقبلاً مثيرًا إلى حد أنه يثير رعبى ..

د. علاء عبد العظيم

روايات مصرية للجيب

سافاري

لكي يظل حيا ولكي يظل طبيبا

كليمنجارو

هناك سر ما ينتظرنا في الجبل .. بالتحديد عند القمة الغربية التي يسمونها (كيبو) أو (نجاجي نجاي) .. سنذهب معًا لنعرف هذا السر ، ولكن دون ذلك رحلة مفعمة بالأهوال والصعاب .. يجب أن نعرف من هذا الرجل .. ماذا يفعله بالضبط .. ولماذا العودة عسيرة إن لم تكن مستحيلة ؟!



د. أحمد خالد توفيق

الثمن في مصر ٢٥٠
وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة

العدد القادم
الظاهرة